تشبيهات الإنفاق في سورة البقرة

وعلاقتها بالمعنى الأم وتماسك النص

دكتور

أحمد محمود محمد الجبالي

الأستاذ المساعد في قسم البلاغة والنقد بكلية الدراسات

الإسلامية والعربية - بنات - كفر الشيخ -

جامعة الأزهر

تشبيهات الإنفاق في سورة البقرة وعلاقتها بالمعنى الأم وتماسك النص

أحمد محمود الجبالي

قسم البلاغة والنقد ، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ، جامعـــة الأزهـــر، كفر الشيخ ، مصر

البريد الإلكتروني : ahmedelgebaly810.el@azhar.edu.eg

الملخص :

التماسك النصي نظرية يصعب الوقوف على مناهجها، والاتفاق على مفهومها وصورها، فهي حديثة كمنهج نقدي ظهرت على يد علماء الغرب، قديمة بجذورها الضاربة في بطون التراث النقدي، فجذورها في التراث العربي البلاغي والنقدي واضحة جلية، وإن كانوا قد عبروا عنها بما يتوافق مع ثقافتنا العربية من مصطلحات كالتناسب، والتلاحم، والانسجام، والاتساق، والتلاؤم، ومراعاة النظير، بل إن مفهوم النظم ذاته قام على ترتيب الألفاظ على حسب ترتيب المعاني في النفس، مع توخي معاني النحو، وتلك هي صورة التماسك النصي، أو الفكرة التي قامت عليها فكرة الانسجام التركيبي التي ذكرها الإمام عبد القاهر الجرجاني .

والقرآن الكريم كله مبني على الوصل، فهو كالكلمة الواحدة لشدة تماسك آياته وسوره على اختلاف منازلها ومقاصدها، فالغاية من نزوله مجملا ومفصلا هي الإذعان بربوبية الله، وتوحيده بالعبادة، التي هي مراد الحق من الخلق ،وهذا ما يسمى بالمعنى الأصيل أو المعنى الأم الذي تولد من رحمه معاني القرآن الكريم مع اختلاف منازله بين المكي والمدني، وتنوع مقاصده بين العبادات والمعاملات والأخلاق، فكان التماسك قائما في ألفاظه نصا، متحققا في معانيه غاية.

الكلمات المفتاحية : تشبيهات – الإنفاق – البقرة – التماسك – النص .

Similarities of spending in Surat Al-Baqara and its relationship to the mother meaning, and the coherence of the text

Ahmed Mahmoud Al-Jabali
Rhetoric and Criticism Department, College of Islamic and Arabic Studies for Girls, Al-Azhar University, Kafr El-Sheikh, Egypt
E-mail: ahmedelgebaly810.el@azhar.edu.eg

Abstract :

Textual coherence is a theory whose methods are difficult to understand, and to agree on its concept and images, for it is modern as a critical approach that appeared at the hands of Western scholars, ancient with its roots in the stomachs of the critical heritage, its roots in the rhetorical and critical Arab heritage are clear and clear, even if they expressed it in line with our Arab culture Of terms such as proportion, cohesion, harmony, consistency, harmony, and consideration for peers, but the concept of systems itself is based on arranging words according to the order of meanings in the soul, with the preservation of grammar meanings, and that is the image of textual coherence, or the idea on which the idea of compositional harmony was based Mentioned by Imam Abdul-Qaher Al-Jarjani.

The entire Holy Qur'an is based on the wasl, it is like one word for the severity of the consistency of its verses and its surahs, regardless of their different positions and purposes. Have mercy on the meanings of the Noble Qur'an with the difference in its status between the Meccan and the civil, and the diversity of its purposes between acts of worship, transactions and morals, so the consistency was present in its words in text, achieved in its meanings an end, and when this was the case, I wanted to clarify that idea, so I fell on the back of the grandfather - after relying on God Almighty - I wrote this research and was the reason |.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه ومن سار على طريقه إلى يوم الدين . وبعد... .

فالقرآن الكريم مصدر كل علم، وأساس كل فن، ينهل منه كل طالب، لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنتهي عجائبه، وكلما وردته طلبا زادك عطاء ، فهو مورد لكل نازلة، وفلاح لكل طالب، وسعادة لا تبارى لكل دارس، ومعلوم أن للقرآن الكريم نزولا وتنزيلا، فالنزول انقطع بانقطاع وحي السماء عن الأرض، وأما التنزيل فما يقع من استنباط للأحكام، وتوليد للمعاني التي يمكن حمل النظم عليها، وهذا باق بقاء الحياة، ومن ثم كان وجهة العقول شطر أفيائه يقطفون ثمارا لا تعطب، ويهتدون إلى أسراره التي لا تنقطع، فسمحت لهم الاستظلال بظلاله، والعيش في رحاب آياته تأويلا ودراية.

ولقد ظلت الدراسات القرآنية محاطة بسياج من الاحتراس والاحتراز، خوف الوقوع في تأويلات تذهب بالنص عن مقصده، لاسيما وأن آياته حمالة من المعاني ما يستنبط منها مراد الحق من الخلق، عبادات ومعاملات وأخلاق، وكان باعث ذلك تلك الخصوصية القدسية للنص القرآني، فلم يكن كأي نص أدبي تتسع مساحات القول فيه، أو إمكانية تطبيق المناهج النقدية على آياته، خاصة وأن تلك المناهج من صنع البشر، وما كان من صنع البشر لا يرقى بأي حال من الأحوال أن يكون حكما على كلام الله تعالى، فلا سلطان لأي منهج عليه، ولا مطاوعة لكلام الله قاعدته، وإنما تطوع القواعد وفق ما جاء في كلام الله من أساليب، فما كان متماشيا معه من نظريات أو مناهج قبلناه، وما كان مخالفا له رفضناه.

والتماسك النصي نظرية يصعب الوقوف على مناهجها، والاتفاق على مفهومها وصورها، فهي حديثة كمنهج نقدي ظهرت على يد علماء الغرب، قديمة بجذورها الضاربة في بطون التراث النقدي، فجذورها في التراث العربي البلاغي والنقدي واضحة جلية، وإن كانوا قد عبروا عنها

بما يتوافق مع ثقافتنا العربية من مصطلحات كالتناسب، والتلاحم، والانسجام، والاتساق، والتلاؤم، ومراعاة النظير، بل إن مفهوم النظم ذاته قام على ترتيب الألفاظ على حسب ترتيب المعاني في النفس، مع توخي معاني النحو، وتلك هي صورة التماسك النصي، أو الفكرة التي قامت عليها فكرة الانسجام التركيبي التي ذكرها الإمام عبد القاهر الجرجاني في قوله:" واعلمْ أنَّ مَثَلَ واضِعِ الكلام مثَلُ مَنْ يأخذ قطعًا من الذهب أو الفضةِ فيُذيبُ بعضَها في بعضٍ حتى تَصير قطعةً واحدةً "(١).

والقرآن الكريم كله مبني على الوصل، فهو كالكلمة الواحدة لشدة تماسك آياته وسوره على اختلاف منازلها ومقاصدها، فالغاية من نزوله مجملا ومفصلا هي الإذعان بربوبية الله، وتوحيده بالعبادة، التي هي مراد الحق من الخلق ، وهذا ما يسمى بالمعنى الأصيل أو المعنى الأم الذي تولد من رحمه معاني القرآن الكريم مع اختلاف منازله بين المكي والمدني، وتنوع مقاصده بين العبادات والمعاملات والأخلاق، فكان التماسك قائما في ألفاظه نصا، متحققا في معانيه غاية، ولما كان الأمر كذلك أردت أن أوضح تلك الفكرة، فشمرت عن ساعد الجد – بعد الاعتماد على الله تعالى– وقمت بكتابة هذا البحث تشبيهات الإنفاق في سورة البقرة وعلاقتها بالمعنى الأم وتماسك النص]

<u>وكان سبب اختياري</u> لسورة البقرة كونها أطول سور القرآن الكريم، وتشعب مقاصدها، ومع تشعبها تراها تدور في فلك واحد.

<u>واختياري لتشبيهات الإنفاق نموذجا</u> لكونها صورة حية لبيان عقيدة الإيمان بالغيب، التي تدور حولها أهداف السورة ومقاصدها، فقضية الأجر على العمل ومضاعفة الثواب عليه من الأمور الغيبية التي أذعن بها المتقون ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ وما يتبعها من تشريعات تصدق هذا الإيمان

(١) دلائل الإعجاز : أبو بكر عبد القاهر الجرجاني :٤١٢،٤١٣ – تحقيق: محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة ، الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

وهو قوله تعالى:﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[1].

وقد سبقت هذه الدراسة دراسات متعددة، منها ما هو مختص بمفهوم المعنى الأم، وأثره في توضيح فكرة النص، مثل "تحديد أمهات المعاني والجمل في النصوص، وأثرها في تذوقها وتحليلها عند الشيخ محمد أبي موسى للدكتور: محمود حسن مخلوف، و"المعنى الأم وأثره في تذوق النص" للدكتور: حسين إبراهيم حسين إمام، و" تحديد المعنى الأم وأثره في تذوق ميمية المتنبي" على قدر أهل العزم" للدكتور : عبد الباقي علي محمد"[2]. ومنها ما هو مختص بالتشبيهات القرآنية وأثرها في توضيح المعاني وتقريرها، وهي كثيرة ومتعددة مما يصعب حصرها، بيد أنها في دراستها لم تكشف اللثام حول هذا الجامع الذي يجمع تلك الصور، أو الوقوف على الوشائج التي تربط كل صور التشبيه في السورة القرآنية الواحدة لاسيما وإن كانت من السور الطوال، فدراسة تشبيهات سورة من سور القرآن، دراسة متأنية، جديرة بأن تكشف الوشيجة الجامعة بين هذه التشبيهات؛ لأنها ما دامت قد جرت في سورة واحدة ذات سياق واحد، فلابد أن تكون فيها جامعة تجمعها، وهذه الجامعة قد تخفى وتدق، ولكنها دقيقة ورائعة[3]، وهذا ما وقفت معه، وحاولت الكشف عنه في هذه الدراسة.

هذا وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يأتي في مقدمة، وتمهيد ، ومبحثان ، وخاتمة ، وثبت للمصادر والمراجع، ومسرد للموضوعات .

---

(١) سورة البقرة : بعض آية : ٣ .

(٢) بحوث منشورة ضمن كتاب شيخ البلاغيين محمد أبو موسى – بحوث مهداة لفضيلته بمناسبة تجاوزه الثمانين (١٥٣-٢٢٤)-(٧٧٥-٩٢٦) – (٩٦١- ١٠٣٢) مكتبة وهبة الأولى ١٤٤١هـ، ٢٠٢٠م .

(٣) ينظر: دراسة في البلاغة والشعر– دكتور: محمد محمد أبو موسى، صـ ٣٥ – مكتبة وهبة – الطبعة الثانية – ١٤٣٨هـ ٢٠١٧م .

* أما المقدمة : فقد تناولت فيها أهمية هذا البحث، والمنهج المتبع في الدراسة، والخطة التي يسير عليها .

* وأما التمهيد : فقد اشتمل أمرين : أحدهما: تحديد مفاهيم الدراسة ، وثانيها: بين يدي السورة الكريمة

* وأما المبحث الأول تشبيهات الانفاق في سورة البقرة، وعلاقتها بالمعنى الأم، وتحته مطلبان

*وأما المبحث الثاني: تشبيهات الإنفاق، وعلاقتها بتشبيهات السورة. وتحته مطلبان.

* وأما الخاتمة: فقد تناولت فيها أهم نتائج البحث.

* ثم أردفت البحث بثبت للمصادر والمراجع، ومسرد للموضوعات.

وإذا كان من اللازم لكل باحث أن يكون له نظام يسير عليه وطريق ينتهجه في بحثه، فالذي ينبغي التعويل عليه في هذا البحث هو المنهج التكاملي التحليلي الذي يعتمد على النظرة الكلية للشاهد القرآني، وتحليله في ضوء المقام الذي سيق له، فيأخذ من كل منهج ما يمكن الاستعانة به في بحثه.

وإنني بهذه الدراسة أكون قد حاولت أن أقتبس من هذا النور، وإن بدا لي التقصير فحسبي قول الشاعر(١):

لا تَلُمْ كَفِّي إذا السَّيْفُ نَبَا * صَحَّ مِنِّي العَزْمُ والدَّهرُ أَبَى**

فقد عزمت بلوغ الأماني، والنية تعظم العمل، ومن كتب قبلي فكمل؟! فالله أسأل أن أكون من المخلصين، وأن يغفر لي كل تقصير.

والحمد لله رب العالمين

(١) ديوان حافظ إبراهيم : ٧/٢ ، [من بحر الرمل] ، طبعة : دار الكتب المصرية، ١٩٧٣ م.

التمهيد

ويشتمل على أمرين

أولا : تحديد مفاهيم الدراسة

بداية: يتعين في دراسة المصطلحات العلمية، الوقوف على معانيها اللغوية، قبل الخوض في مدلولاتها الاصطلاحية، لأن ثمة ظلالا وارفة لتلك المعاني تبقى متصلة بها مهما انتقلت مع تنوع العلوم واختلاف منابعها، ولعل تلك الظلال أو الصلات هي المؤشر القوي لإدراك المعنى الاصطلاحي للفن، وتكشف مفهومه، وتحدد ملامحه، وعلى ذلك تكون حل إشكالية المصطلحات مبنية على بيان المفهومين معا اللغوي والاصطلاحي، والوقوف على العلاقة بينهما.

(أ) : المراد بالمعنى الأم :

حين النظر إلى هذا المصطلح نجد أنه ضارب بجذور قوية في أعماق التراث العربي بصفة عامة، والتراث البلاغي القديم بصفة خاصة، منذ أن بدأت البلاغة في صورة ملحوظات نقدية على ألسنة الشعراء، إلى أن صارت علما مستقلا مستويا على سوقه تحت أقلام العلماء والدارسين، ومن ثم فهو مصطلح عربي أصيل مكون من كلمة وما وصفت به، والمعنى في اللغة: المراد والمقصد منه وفحواه، وهو معنيه ومعناته ومنعنيته. والاسم العناء،"[1] واعتنى بالأمر: اهتم به، ففي المخصص: عَناه الأمرُ: همَّه وعَنَتْ أمورٌ: نَزَلَتْ وَوَقعت وعَنَيْت الشيءَ: قَصَدْته"[2]،

(١) معجم متن اللغة – (موسوعة لغوية حديثة)– أحمد رضا – مادة : (ع ن ي)، ٤ /٢٣٠ – الناشر: دار مكتبة الحياة – بيروت – ١٣٧٩ هـ – ١٩٦٠ م

(٢) المخصص: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي – مادة (ع ن ي) ٣٧٩/٤– تح: خليل إبراهم جفال – دار إحياء التراث العربي بيروت الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

ومعنى الشيء: حاله التي يصير إليها أمره، "[١]، فهو في اللغة يدور حول معنى المقصد للشيء، والاهتمام به، والعناية بأمره ، وأم الشيء: أصله، وأعظمه، وعموده الذي يقام عليه، وَمِنْه قيل لمَكَّة أم الْقرى وَأم الْكتاب فاتحته وَأم الْكتاب أَيْضا اللَّوْح الْمَحْفُوظ وَأم الرمْح الرَّايَة، قَالَ الشاعر:

وسَلَبْنَا الرُّمْحَ فِيهِ أُمُّهُ ... مِنْ يَدِ العَاصِي ومَا طَالَ الطِّوَلْ

وَيُقَال فلَان أم الْقَوْم وأبوهم إِذا كَانَ يحفظهم ويتولى أَمرهم [٢]

فأم كل شيء أصله وعماده"[٣] ، و يطلق على كل يضم إلى ما يليه جاء في العين: "اعلم أنّ كلّ شيء يضمُّ إليه سائر ما يليه فإن العرب تُسمِّي ذلك الشَّيْء أُمّاً، فمن ذلك: أمّ الرأس وهو: الدّماغ""[٤].

وعلى ذلك فإن المقصود بهذا المصطلح المركب :" أن يكون للقائل في نصه أو مجموعة نصوصه مقصد رئيس معقود بما تفرع عنه ، لا يبارح نفسه ، وإن اختلفت الشيات وتنوعت المعارض "[٥]

(ب) : المراد بتماسك النص :

تطورت الدراسات اللغوية والأدبية تطورا ملحوظا بعد ظهور ما يعرف بعلم لسانيات النص، الذي يعنى بالوقوف على تماسك النص من

---

(١) معجم متن اللغة – ٤ / ٢٣٠ .

(٢) البيت [من بحر الرمل] وهو بلا نسبة في لسان العرب – محمد بن مكرم، جمال الدين ابن منظور الإفريقي، مادة : أمم – ط: دار صادر – بيروت – الثالثة – ١٤١٤ هـ– .

(٣) القاموس المحيط: محمد بن يعقوب الفيروزآبادى فصل الهمزة مادة (أمم): صـ ١٠٦٧– ط: مؤسسة الرسالة بيروت لبنان– الثامنة، ١٤٢٦هـ،٢٠٠٥ م.

(٤) كتاب العين – أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي : مادة (أمم) : ٤٢٦/٨ ، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي – ط: دار الهلال

(٥) المعنى الأم وأثره في تذوق النص – د/ حسين إبراهيم حسين إمام –ضمن كتاب شيخ البلاغيين محمد أبو موسى – بحوث مهداة لفضيلته بمناسبة تجاوزه الثمانين : صـ٨٢٩ طبعة : مكتبة وهبة – الأولى ١٤٤١هـ، ٢٠٢٠م .

خلال الربط بين أجزائه وتراكيبه، مفردات، وجمل، وتراكيب، معان جزئية وأخرى كلية، مما أفرز عدة نظريات نقدية حديثة تدور حول تلك الفكرة، ووضوح مقصدها، وكان من أبرز تلك النظريات ما يعرف بنظرية (التماسك النصي)، التي تعد من أحد أهم المفاهيم المتولدة في الدراسات النقدية الحديثة، والتماسك: مصدر تماسك بمعنى ترابط، فهو تلاحم جميع أجزاء الشيء حتى كأنه شيء واحد، بضم جزء الشيء إلى ما يجاوره في سبك وانسجام واتساق، وعليه يمكن أن نضع تعريفا للتماسك النصي فنقول: هو تعلق عناصر النص بعضها ببعض، عن طريق أدوات شكلية(لفظا) أو دلالية (معنى)، تساهم تلك الأدوات في ربط العناصر الداخلية للنص بعناصره الخارجية؛ لتنتج في نهاية الأمر نصا يتلقاه المخاطب فيقع عنده موقع الرضا والقبول، وعلى هذا فإن مصطلح التماسك النصي يتجاوز حدود الربط بين أجزاء الجمل إلى البحث عن وسائل أخرى تحقق عملية التلاحم والترابط بين التراكيب الكلية في النص الأدبي، مما يضع أيدي القارئ على الأسرار الإبداعية التي تجعله واقفا مشدوها أمام القدرة البيانية التي وظفها الأديب الحاذق في بناء نصه"[1]

(ج) : علاقة المعنى الأم بتماسك النص

المعنى الأم صورة من صور التناسب والتلاحم والتماسك في النص لتلاحم معانيه، وتناسب مقاصده، وتماسك تراكيبه، فالنص الجيد ما كان أوله تمهيدا لآخره، وأوسطه دليلا وبرهانا لنتائجه، وآخره نتيجة لما احتواه من جمل وتراكيب في أوله، فيدور النص حول معنى واحد أصيل، متفرع منه عدة معان، تلك الفروع تحتوي على جذور فرعية، فتكون الألفاظ

(١) ينظر : لسانيات النص نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري – أحمد مداس صـ ٣ طبعة: عالم الكتاب الحديث للنشر – اربد – الأردن – الأولى – ٢٠٠٧م

متماسكة، والمعاني المتعددة متلاحمة خارجة من رحم واحد، وتعود في مجملها إلى هذا المعنى الأصيل المسمى بالمعنى الأم. وهذا المعنى الأم يقع في تركيب واحد أو عدة تراكيب متتابعة يطلق عليها – أيضا– بالجملة الأم تعود تراكيب النص إليها بدأ ونهاية .

(د) : القيمة الفنية للدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى أن نظرية التماسك النصي – التي يتباهى بها علماء اللغة المحدثون– على أن أصلها وجذرها نقل عن طريق مناهج الغرب الحديثة– ما هي إلا عدة صور استوحاها الغرب من تراثنا النقدي القديم مبثوثة ومنتشرة في ثنايا الكتب والمؤلفات الأدبية أو البلاغية والنقدية، ولكنها جاءت تحت مسميات تتناسب وثقافة العصر، وما يتلاءم معها من مصطلحات، فتارة يطلق عليها باب التناسب، وتارة يطلق عليها باب التلاحم والتلاؤم، فها هو الجاحظ يذهب إلى أن أجود الشعر "ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فتعلم بذلك أنّه قد أفرغ إفراغا واحدا، وسبك سبكا واحدا، فهو يجرى على اللسان كما يجرى على الدهان... وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر تراها متفقة ملسا ولينة المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة ومتنافرة مستكرهة تشق على اللسان وتكده، والأخرى تراها سهلة لينة ورطبة مواتية، سلسة النظام خفيفة على اللسان حتى كأنّ البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأنّ الكلمة بأسرها حرف واحد"(١)

(١) البيان والتبيين – لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : ١ / ٦٦– تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون – طبعة دار الجيل بيروت – دار الفكر للطباعة .

ثانيا : بين يدي السورة الكريمة

(أ) فضل سورة البقرة

هي سورة مدنية بلا خلاف بين العلماء ، وهي أطول سورة في القرآن الكريم، وعدد آياتها (مائتان وسبع وثمانون) آية، وفيها أطول آية في القرآن الكريم وهي آية (المداينة)، وقد جاء من الأحاديث والآثار ما يدل على فضل السورة الكريمة، وبيان منزلتها بين سور القرآن الكريم ، وهي سنام القرآن، وفيها آية هي أفضل آية في القرآن الكريم (آية الكرسي)"[1]"، وهي سورة تعنى بالجانب التشريعي شأنها شأن السور التي نزلت بالمدينة، كما أنها اشتملت على مسائل العقيدة والتوحيد، وهي سورة قامت على معالجة النظم والقوانين الاجتماعية والتشريعية، التي يحتاج إليها الناس في حياتهم.

---

(١) عن أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله – ﷺ –، يَقُولُ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ». قَالَ مُعَاوِيَةُ: بَلَغَنِي أَنَّ الْبَطَلَةَ: السَّحَرَةُ». [المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله – ﷺ – بصحيح مسلم – مسلم بن الحجاج النيسابوري – كتاب صلاة المسافرين وقصرها – بَابُ فَضْلِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَسُورَةِ الْبَقَرَةِ حديث رقم(٨٠٤) عن أبي أمامة الباهلي – تح: محمد فؤاد عبد الباقي– ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت]. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سِنَامًا وَسِنَامُ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، فِيهَا آيَةٌ سَيِّدَةُ آيِ الْقُرْآنِ، لَا تُقْرَأُ فِي بَيْتٍ فِيهِ شَيْطَانٌ إِلَّا خَرَجَ مِنْهُ آيَةُ الْكُرْسِيِّ» [مسند الحميدي– أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي المكي : أحاديث أبي هريرة ﷺ :٢٠٧/٢ – تح: حسن سليم أسد الدَّارَانيّ– ط: دار السقا، دمشق – سوريا– الأولى، ١٩٩٦م.

(ب) – التناسب بين سورة البقرة وما يجاورها.

باب أسرار البلاغة الكامنة في ترتيب السور هو من البلاغة الخاصة بالقرآن، ليس له أشباه في الشعر(١).

من خلال تلك المقولة يمكن أن نتطلع إلى معرفة ما بين سورة البقرة وما يجاورها من مناسبات وعلائق وشيجة، لا نستطيع التفرقة بينهما، وهو أنه لما ذكر في سورة الفاتحة دعاء المهتدين في قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾"(٢) جاءت سورة البقرة لتوضيح وبيان الذين غضب الله عليهم وهم اليهود، فتحدثت عنهم وعن أحوالهم ومجادلاتهم لنبيهم، وجرأتهم على ربهم، وكفرهم بنعمه وفضله، وجاءت سورة آل عمران كاشفة عن الضالين وهم النصارى، وما حدث منهم مع نبيهم ومجادلاتهم له، ومحاجاتهم لربهم بطرق متعددة ومواقف مختلفة. قال أبو جعفر الغرناطي:"لما قال العبد بتوفيق ربه﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾" قيل له: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ ﴾هو مطلوبك وفيه أربك، وهو﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ ﴿ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ القائلين ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ والخائفين من حال الفريقين المغضوب عليهم ولا الضالين، فاتخذوا وقاية من العذاب خوف ربهم وتقواه بامتثال أمره ونهيه"(٣) ، أما سورة آل عمران فقد جاءت بعد

---

(١) من أسرار التعبير القرآني – دراسة تحليلية لسورة الأحزاب – د/ محمد محمد أبو موسى : صـ٤٥ مكتبة وهبة – الثالثة ١٤٣٢هـ ٢٠١٢م .

(٢) سورة : الفاتحة : آية :٦، ٧ .

(٣) البرهان فى تناسب سور القرآن– أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر : صـ ١٩٠– تحقيق: محمد شعباني– الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المغرب– عام النشر: ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م.

سورة البقرة، " والسورتان تشتركان معاً في قضية عقدية أولى، وهي الإيمان بالله والتصديق بمحمد – ﷺ – وبما جاء به من عند الله خاتما للرسالات ومهيمناً عليها.

ولذلك تكلم الحق عن قضية الإيمان وقضية الهدى وقضية الكتاب، ثم تعرض الحق لرواسب ديانات سابقة تحولت عن منهج الله إلى أهواء البشر، فجادل في سورة البقرة اليهود، وجادل في سورة آل عمران النصارى"، ومن ثم ظهر آيات التناسب والانسجام بين سورة البقرة وما يجاورها والاتفاق على بيان قضية مهمة وهي قضية العقيدة والإيمان بالغيب، وتصديق ذلك قلبا وقالبا.

المبحث الأول

تشبيهات الإنفاق في سورة البقرة وعلاقتها بالمعنى الأم .

البحث عن المعنى الأم والعثور عليه هو عمود التحليل الدقيق، والذي يفتح مغاليق النصوص، ويجيب عن غوامضها؛ لأنه ثمرة التذوق النافع الذي نبع من التكرار والمدارسة والاستنباط . "[١]

والقرآن الكريم كلام الله تعالى المنزل على رسوله محمد – ﷺ – من أهم صفاته، وآيات إعجازه أنه مبني على الوصل من بدايته حتى نهايته، فكل لفظة تجاور صاحبتها، وكل جملة تتصل بما بعدها، وكل آية مقدمة لما بعدها، وما تليها نتيجة لها، وكل سورة تتم معني ما قبلها، وهكذا من أول سورة الفاتحة، وتسمى بأم الكتاب، حتى آخر آية في سورة الناس، في تعانق شديد، وتماسك بلاغي قوي بين الألفاظ والمعاني، حتى صارت آيات القرآن جميعها كالسورة الواحدة منه، وتلك سمة من سمات إعجازه، وآية بلاغته، التي عجز الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ولو كانوا على قلب رجل واحد .

ولهذا التماسك والتعانق بين آيات السور القرآنية نجد أن كل سورة من سوره تحمل في طياتها مقاصدَ وأهدافًا تدور حولها ألفاظ السورة وجملها من بدايتها حتى نهايتها، وهو ما يسمى بالمعنى الأم للسورة الكريمة، أو الجملة الأم التي تدور حولها التراكيب، وإن شئت قل الآية الأم للسورة الكريمة، الذي تولد من رحمه معاني القرآن الكريم مع اختلاف منازله بين المكي والمدني، وتنوع مقاصده بين العبادات والمعاملات والأخلاق، فكان التماسك قائما في ألفاظه نصا، متحققا في معانيه غاية، ولما كان الأمر كذلك أردت أن أوضح تلك الفكرة على أطول سور القرآن الكريم، وهي سورة البقرة مع تعدد مقاصدها وتشعبها، ومع هذا التشعب تعود إلى معنى أم واحد – كما سيأتي–.

---

(١) ينظر : المعنى الأم وأثره في تذوق النص : صـ ٨٤١ .

المطلب الأول

وسائل تحديد المعنى الأم في سورة البقرة وعلاقته بمقاصدها

سبق أن ذكرت أن البحث عن المعنى الأم والعثور عليه هو العمود الفقري الذي يقوم عليه التحليل الدقيق، وقد حاول بعض الباحثين أن يحدد لكل سورة من سور الذكر الحكيم موضوعا عاما تدور حوله آياتها، ثم بعد ذلك يجتهد في بيان مناسبات الآيات بعضها لبعض في ضوء هذا الغرض العام(١).

وقد سميت هذه السورة بسورة (البقرة) نسبة إلى قصة بقرة بني إسرائيل التي جاءت قصتها في ثنايا السورة الكريمة، في إشارة إلى مقصد تلك القصة، وهو قضية إحياء الموتى، وهو مدار السورة كلها، مع كونها سورة ذات مقاصد متعددة، ومرام متشعبة، منها ما يختص بالجوانب العقدية الإيمانية، ومنها ما هو قائم على إظهار الدلائل الكونية والبراهين القولية للدلالة على صدق الرسالة، وتلك المقاصد الأصيلة للسورة البقرة إنما قصد بها التنويه على عقيدة يتولد منها امتثال وإذعان لأوامر الله ونواهيه، يتبعها تشريعات، وأحكام ترسم منهجا ليسير عليه الناس الذين جعلهم الله خليفته في أرضه .

بيد أن مع هذا التنوع في الأهداف والمقاصد يمكن العودة بها جميعا إلى مقصد واحد أصيل يتحكم في تناسب المعاني الجزئية في السورة وتناسقها، وتدعو إلى التماسك بين أجزائها وجملها، "والذي عليه جماعة من العلماء أن السورة ذات غرض واحد، وتتنوع الموضوعات فيها وفاء بهذا الغرض الأصلي، وقد شاع ذلك في حديثهم عن المناسبات"(٢).

فالمعاني تختلف وتتفق، وتجتمع وتفترق وتتعدد أنواعها وأجناسها،

---

(١) من أسرار التعبير القرآني : صـــ ٥٥ .

(٢) علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم دراسة بلاغية – نظرية – تطبيقية أ.د/ إبراهيم صلاح الهدهد: ٣٩. مكتبة الإيمان الأولى ١٤٣٢هـــ ــ ٢٠١١م .

ثم في النهاية تلتقي عند وظيفة واحدة ، أو مفهوم واحد يجمل ما فصل، ويجمع ما فرق، يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني:" واعلم أن غرضي في هذا الكلام الذي ابتدأته، والأساس الذي وضعته، أن أتوصّل إلى بيان أمر المعاني كيف تختلف وتتفق، ومن أين تجتمع وتفترق، وأفصل أجناسها وأنواعها، وأتتبّع خاصّها ومشاعها، وأبين أحوالها في كرم منصبها من العقل، وتمكّنها في نصابه، وقرب رحمها منه، أو بعدها حين تنسب عنه، وكونها كالحليف الجاري مجرى النّسب، أو الزّنيم الملصق بالقوم لا يقبلونه، ولا يمتعضون له ولا يذبّون دونه".(١)

وقصة بني إسرائيل مع البقرة والتي سميت السورة باسمها، تضع أمام أعيننا غرضا أصيلا لها، يمكن حمل المعاني المتعددة فيها إليه، وهو صورة النفس البشرية حال استقبال التشريعات والأحكام الإلهية، وعلاقة ذلك بالقضية الأم لهذه السورة وهي" الإيمان بالغيب " تلك الصفة التي تصدرت صفات المتقين في مفتتح آيات تلك السورة الكريمة، " فمن عرف المراد من اسم السور عرف مقصودها، ومن حقق المقصود منها، عرف تناسب آيها، وقصصها، وجميع أجزائها، فقد تضمن إبرازه مع ما أفاده بالقصد الأول شحذ الأذهان، ومعاناة لمن استولت عليهم النسوان، وأكثروا لهم من الطعم والدهان، ليعلموا أن العلم من عزة المرام، وعظمة المقام، بحيث لا يهون أبدا، كما أنه قط ما هان، فيرجعوا عن الفجور والزور والبهتان، فليفتحوا طريق سورة من السور، وإن كانت في غاية الوجازة والقِصر فإن كل سورة لها مقصد واحد يدار عليه أولها وآخرها، ويستدل عليه فيها".(٢)

---

(١) أسرار البلاغة : أبو بكر عبد القاهر الجرجاني: صـ ٢٦ ، قرأه وعلق عليه : أبو فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، الأولى – ١٤١٢هـ ١٩٩١م.

(٢) مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السُّوَرِ– ابن أبي بكر البقاعي:١ / ١٤٩، ط مكتبة المعارف الرياض الأولى ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧ م.

فقد دارت السورة كلها حول هذا المعنى الأم فيها وهو صورة استقبال الناس لتشريعات السماء، من بدايتها حتى نهايتها، فقد بدأت سورة البقرة بذكر أوصاف المؤمنين، وجعلت أولى صفاتهم وعنوان خصالهم الإيمان بالغيب ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ وما يتبعها من تشريعات تصدق هذا الإيمان وهو قوله تعالى:﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[1]، وختمت ببيان حقيقة الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله، دون تفرقة أو تميز بينهم، ودعاء المؤمنين لربهم، في قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[2].

فتناسق البدء مع الختام، جعل التراكيب والمعاني في أوضح صورة، وأتم انسجام ، وهذا التناسق التام بين بداية السورة ونهايتها، مع طول آياتها، وتعدد مقاصدها، وتشعب مناحيها، يجعل المتأمل في معانيها واقفا على غرض أصيل أرادت تلك السورة التأكيد عليه، وإقراره في نفوس المخاطبين، وهي قضية استقبال شرائع السماء، وصورة القلب عند تلقيها بالرفض أو القبول، وما يترتب عليه من الإيمان بالله تعالى، وما يتشعب منه من أحكام وتشريعات، وثواب وعقاب ترغيبا وترهيبا، وإذا أردنا بعد إذ البحث عن المعنى الأم في السورة، والذي انتشر في ثنايا آياتها، وجزئيات أخبارها وكليات قصصها، يجد ذلك مجملا موجزا شاملا

(١) سورة البقرة : بعض آية : ٣ .

(٢) سورة البقرة : آية : ٢٨٥، ٢٨٦.

في قوله تعالى مطلع السورة في بيان صفات المتقين: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1]، ، ولك أن تتأمل التلاؤم والتناسق بين معاني تلك الآيات وألفاظها، كأنها فلك يدور حول مفهوم واحد، فالبداية تنطق بالهداية﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يقابلها نهاية مبشرة بالخير، لمن أخذ بأسبابها، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ ﴾، ومن كانت هذه حالهم استحقوا أحب الصفات وأعلاها وهي التقوى ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾، ثم إن البدايات الطاهرة يناسبها نتائج طيبة ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾، والإيمان بالغيب في قوله:﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ من مستلزماته التمسك بالشرائع الفعلية، من قبيل ما وقر في القلب وصدقه العمل فكان قوله: ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ عملان متلازمان في الأمر بهما، وتلك صورة الإيمان المشاهدة المحسة، ثم يأتي صورة الإيمان المعنوية قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ متولدا من الصفة الأولى التي هي مركز الالتقاء، من ذكر الخاص بعد العام، ومناط الأمر كله، فهم من استقبلوا مراد الحق منهم فشمروا وتسابقوا وفازوا بالتقوى والفلاح، وعلى النقيض تبدأ السورة في سرد الصنف الآخر من المغضوب عليهم من الله، والضالين طريق الهداية وهم المنافقون والكافرون.

وبهذا يتضح أن كل سورة لها مقصد واحد يدار عليه أولها وآخرها، ويستدل عليه فيها فترتب المقدمات الدالة عليه، على أتقن وجه، وأبدع نهج، وإذا كان فيها شيء يحتاج إلى دليل، استدل عليه. وهكذا في دليل الدليل، وهلم جرا. فإذا وصل الأمر إلى غايته، ختم بما منه كان ابتدأ، ثم انعطف الكلام إليه وعاد النظر عليه، على نهج آخر بديع، ومرقى غير

(١) سورة البقرة : آيات : ٢ – ٥ .

الأول منيع، فتكون السورة كالشجرة النضيرة العالية، والدوحة البهيجة الأنيقة الخالية، المزينة بأنواع الزينة المنظومة بعد أنيق الورق بأفنان الدر، وأفنانها منعطفة إلى تلك، المقاطع كالدوائر، وكل دائرة منها لها شعبة متصلة بما قبلها، وشعبة ملتحمة بما بعدها، وآخر السورة قد واصل أولها، كما لاحم انتهاؤها ما بعدها، وعانق ابتداؤها ما قبلها، فصارت كل سورة دائرة كبرى، مشتملة على دوائر الآيات الغر، البديعة النظم، العجيبة الضم، بلين تعاطف أفنانها، وحسن تواصل ثمارها وأغصانها"(١) .

والحق أن هذا الأمر كان مناط البحث عن تناسب الآي والسور عند علماء التناسب والبحث في علوم القرآن الكريم، حيث إن نظرتهم للتناسب لم تكن نظرة جزئية لمناسبة الآية لما قبلها، وعلاقتها بما بعدها، وإنما كانت نظرتهم عامة لجزئيات الصورة وكلياتها قصدا للوصول إلى المعنى الأم أو الجامع لتلك الجزئيات والكليات، "فالذي عليه أكثر أهل العلم أن السور القرآنية تتعدد أغراضها نظرا لظاهر نصوص القرآن الكريم، واستنادا لما تحويه سور الذكر الحكيم من قصص أنبياء، وأمور الغيب، وأمور العقائد، والتشريعات، وقد نجد كل هذا في سورة واحدة، كالطوال والمثاني، والمئين"(٢).

ومن هنا كانت الفروع التي خرجت من هذا الجذر الكبير تعود إلى هذا المعنى، واتضاح التماسك والتلاؤم بين تلك المعاني والتراكيب وضوحا جليا في صورة التشبيهات التي جاءت منتشرة متعددة ومتنوعة زمع تعددها ، وتنوع صورها، تراها شاهدة على هذا التماسك، دالة على فكرة المعنى الأم لتلك السورة الكريمة، وهذا ما سأقوم بالكشف عنه فيما يأتي في صورة مُثُلٍ قرآنيةٍ شاهدةٍ على صدق الفكرة، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

(١) مَصَاعِدُ النَّظَرِ لِلإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السُّوَرِ-:١ / ١٤٩.

(٢) علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم : صـ ٣٩.

المطلب الثاني

تشبيهات الإنفاق في السورة وعلاقتها بالمعنى الأم .

سبق وأن وقفنا على المعنى الأم الذي تدور حوله معاني سورة البقرة، وهو الإيمان بالغيب، بمفهومه الكلامي ، وهو التصديق بكل ما أخبرنا به النبي محمد – ﷺ – ولم نعاينه بحواسنا ، وإنما آمنا به بقلوبنا تصديقا وإذعانا بكل ما جاء به النبي – ﷺ – ولا يمكن معرفة الغيب إلا عن طريق الوحي ، وهو الدعامة الثانية من دعائم العقيدة الإسلامية، والإيمان بالغيب هو الدعامة في كل دين، لأن وراء هذا العالم المادي عالم آخر غيره، فمن لم يؤمن به فقد جحده، ولا يمكن أن يكون إيمان بالله من غير إيمان بالغيب، ولذلك يقول الله في أوصاف المؤمنين، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

فالغيب ما خرج عن متناول الحواس، وإدراك العقل، والإيمان بما يجيء من عالم الغيب، لا معتبر له إلا إذا كان مسند إلى جهة لا يتطرق إليها الكذب، وكلما صح إيمان المرء بالغيب، قوي التصديق في قلبه، فخلصت عقيدته، وصح منهجه، حيث إن العقيدة مأخوذة من العقد وهو الربط، والشد، والعهد، وكل ما يدين به الإنسان يسمى عقيدة ولو كانت فاسدة، وهي عمل القلب بالإيمان[2].

فالعقيدة طبيعة لا علم، وشعور لا فلسفة، وخلق لا رأي، وهي أقوى رباط بين المسلم وغايته، فلا رابطة أقوى من العقيدة، ولا عقيدة أصح من

---

(١) سورة البقرة : آيات : ٣ – ٥ .

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر– مجد الدين ابن الأثير مادة (عقد) تح: طاهر أحمد الزاوى، محمود محمد الطناحي المكتبة العلمية بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

الإسلام، والحق أنه قد ارتبطت قضية التعبير عن الإدراك الحسي في القرآن الكريم بغاية هذا الكتاب الخالد، وهو كونه كتاب هداية للبشرية، وهذا ملاحظ من وجوه كثيرة من أهمها تزكية أهل الإيمان بالغيب؛ لأن الوحي أعلى صدقا عندهم من المحسوس المشاهد، وفي الوقت نفسه يسوق لغيرهم من الآيات الكونية المحسوسة ما يدل على صدقه وعظيم بيانه، ومن هنا تظهر قيمة هذا الإدراك في الاستدلال على الآيات الشرعية، والانتفاع بها، فاستحقت الحواس أن تكون محل امتنان الرب تعالى على عباده، ومناط تذكير بفضله عليهم(١).

ومن هذا المفهوم انطلقت الصورة التشبيهية بكل مقاماتها وسياقاتها في السورة الكريمة؛ لتوضيح معاني العقيدة الصحيحة، والعودة بها إلى جذر واحد وهو الإيمان بكل ما جاءت به آيات القرآن الكريم في أسلوب تشبيهي بياني تمكينا له ، وتقريرا لمراده، ترهيبا وترغيبا، فتوضيح ضلال الضالين، منجاة لأهل الهدى الصالحين المصلحين، ويتضح ذلك جليا في تشبيهات الإنفاق في السورة الكريمة كنموذج حي لبيان فكرة المعنى الأم، أو الصفة الجامعة لكل أساليب السورة الكريمة بصفة عامة، وتشبيهاتها بصفة خاصة.

آيات الإنفاق في السورة الكريمة

قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن

(١) البنية الحسية في التعبير القرآني – د/ ابراهيم سعيد السيد : ٣٠٤ – طبعة : النابغة للنشر – الأولى – ١٤٣٥هـ ٢٠١٤م .

صَدَقَـٰتِهِم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾[1]

مناسبة الآيات بما قبلها وعلاقتها بالمعنى الأم

رابط الآيات الكريمة بما قبلها أنه لما أجمل سبحانه صورة المضاعفة في قوله ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[2]، فصّل سبحانه في هذه الآية تلك المضاعفة الثوابية التي لا نهاية لها، " وإنما ذكر بين الآيتين الأدلة على قدرته بالإحياء والإماتة من حيث لولا ذلك لم يحسن التكليف بالإنفاق، لأنه لولا وجود الإله المثيب المعاقب، لكان الإنفاق في سائر الطاعات عبثا، فكأنه تعالى قال لمن رغبه في الإنفاق قد عرفت أني خلقتك وأكملت نعمتي عليك بالإحياء والإقدار وقد علمت قدرتي على المجازاة والإثابة، فليكن علمك بهذه الأحوال داعيا إلى إنفاق المال، فإنه يجازي القليل بالكثير، ثم ضرب لذلك الكثير مثلا، وهو أن من بذر حبة أخرجت

(١) سورة : البقرة : آيات : ٢٦١ – ٢٦٦ .

(٢) سورة البقرة : آية : ٢٤٥ .

سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، فصارت الواحدة سبعمائة"[١].

فهذه الآية كالتفسير والبيان لبيان مقدار المضاعفة ، فجعل الحبة الصغيرة تنتج سبع سنابل ، كل سنبلة منها تحمل حبوبا كثيرة " كأن القلب ينظر إلى هذا التضعيف ببصيرته كما تنظر العين إلى هذه السنابل التي من الحبة الواحدة فيضاف الشاهد العياني إلى الشاهد الإيماني القرآني فيقوي إيمان المنفق وتسخو نفسه بالإنفاق"[٢]

وثمة رابط آخر بَيِّنٌ وهو أنه لما أمر الله المؤمنين بالإنفاق قبل قيام الساعة في قوله :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [٣]، ناسب أن يذكر ثواب هذا العمل، ومضاعفة أجره إلى ما لا نهاية من عطاء الله الواسع، صاحب الفضل الجزيل في يوم ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ﴾ حتى تطمئن القلوب، وتأنس النفوس، ترغيبا في العمل، خشية الوقوع في دائرة الظالمين لأنفسهم، الكافرين بنعم الله، الجاحدين عطاءه.

وتلك الآيات الكريمة جمعت بين ثلاث تشبيهات متتابعة جاءت جميعها لبيان فضل الإنفاق في سبيل الله، والمحافظة عليه من البطلان، وعدم القبول، فكان الكلام مبنيا على الترغيب والترهيب سلبا وإيجابا .

وعلاقة هذه الصور التشبيهية بالمعنى الأم للسورة الكريمة والمتمثل في الإيمان بالغيب والذي صدرت به صفات المتقين في قوله ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ

---

(١) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير أبو عبد الله محمد بن عمر الملقب بفخر الدين الرازي:٧ / ٣٩. طبعة : دار إحياء التراث العربي بيروت الثالثة ١٤٢٠ هـ.

(٢) تفسير القرآن الكريم: ابن قيم الجوزية :١ / ١٥٧ ت: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية – ط: دار الهلال –بيروت– الأولى – ١٤١٠ هـ

(٣) سورة : البقرة : آية : ٢٥٤ .

بِٱلْغَيْبِ ﴾ أنه من صور الإيمان بالغيب الإيمان باليوم الآخر، والميزان والحساب، ومن عقد ذلك في قلبه ادخر لهذا اليوم عملا مرجوا، كما أن في الصورة نفسها نوعا من الأمور الغيبية التي ارتكز عليها المعنى العام للسورة الكريمة والمتمثلة في قصة بقرة بني إسرائيل، وكيفية إحياء الموتى بإذن الله تعالى في قوله ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(١)، ثم السير مع هذا المعنى المبثوث في ثنايا السورة الكريمة وصولا إلى قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (٢)، فجمع بين الإنفاق والتذكير باليوم الآخر، وما يحدث فيه من بعث ونشر، وإحياء للموتى بإذن الله، ثم رسم صورة الإحياء في آيتين متتابعتين سبقتها آية المحاجاة بين الخليل إبراهيم والذي حاجه في ربه وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى

(١) سورة : البقرة : آية : ٧٣ .

(٢) سورة : البقرة : آية : ٢٥٤.

كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ (١).

صور قرآنية تكشف قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، وبعثها بعد موتها وأن ذلك لا يكون إلا من ملك وقدر، ومن كانت تلك صفاته كان عطاؤه ممتدا ، وقدرته نافذة على إنجاز وعده، ولو كان غاية العطاء بمقاييس البشر المادية، فسبحانه يخلق من الحبة الصغيرة حبات كثيرة، فتأتي صورة المضاعفة كحبة في عقد منظوم وقد أخذت بأطراف ما سبقتها من آيات، وما حملته من معان دالة على صحة المعتقد، وصدق اليقين بأن ما وعد الله به حق، وأن الإيمان بذلك أصل من أصول الإيمان بالغيب، الذي هو الركن الثاني من أركان الدين الحنيف، ومن فضل الله على عباده أن شرع لهم من الدين ما يوصلهم إلى مرضاته، وسببا في مضاعفة ثوابه، والفوز بجنته، وهذا ما وضحته آيات القرآن الكريم في سياق يبعث على التشوق والترقب، الممزوج بسرعة الإجابة، لعلمهم العقدي بأن وعده سبحانه مُنْجَزٌ، وثوابه ثابت لا محالة، وقد بين – تعالى – تلك المضاعفة أتم بيان وأوضحها أكمل إيضاح، في صور تشبيهية متتابعة وكان للتشبيه دور بارز في تماسك النص، والعودة به إلى المعنى الأم في السورة الكريمة.

ومعلوم أن ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وترتيب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للفعل كنسبة المحسوس إلى الحس، وتأتي أمثال القرآن الكريم مشتملة على بيان تفاوت

(١) سورة : البقرة : ٢٥٨ – ٢٦٠

الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر، ... فامتن علينا بذلك لما تضمنت هذه الفوائد والأمثال مقادير الأفعال والمتمثل كالصانع الذي يقدر صناعته كالخياط يقدر الثوب على قامة المخيط ثم يفريه ثم يقطع وكل شيء به قالب ومقدار وقالب الكلام ومقداره الأمثال . (١)

صورة المضاعفة وعلاقتها بالمعنى الأم للسورة

قوله سبحانه: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

تصوير لتلك المضاعفة وما يتوارى خلف ألفاظها من ثواب عظيم، كالحاضرة المشاهدة بين يدي المخاطب، والغرض من هذا المثل بيان حال النفقة في الزيادة، وهو كما ترى إبراز للمعنوي في صورة الحسي، وتستطيع أن تقول أيضا: إنه بيان إمكان المشبه، لمن لا يعتقد في هذا القدر العظيم من المضاعفة لثواب النفقة ، فأقام المثل من قدرة الله شاهدا على قدرته على المضاعفة المذكورة (٢) ، "وهذه الآية لفظها بيان مثل بشرف النفقة في سبيل الله وبحسنها، وضمنها التحريض على ذلك، وهذه الآية في نفقة التطوع، وسبل الله كثيرة، وهي جميع ما هو طاعة وعائد بمنفعة على المسلمين والملة، وأشهرها وأعظمها غناء الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا".(٣)، والمقصود بالمثل – هنا – الحالة أو الصفة – ومن ثم فإن الغرض من التشبيه – كما ذهب المفسرون وأرباب البيان – بيان مقدار

(١) البرهان في علوم القرآن: أبو عبد الله بدر الدين الزركشي:١ / ٤٨٦ ، ٤٨٧، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه ، الأولى،١٣٧٦هـ – ١٩٥٧م.

(٢) أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم – د/ إبراهيم صلاح الهدهد :صـ ٢٤٨ ، ط الإيمان – الأولى ١٤٣٤هـ ٢٠١٣م.

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز–ابن عطية الأندلسي: ١ /٣٥٥– تح: عبد السلام عبد الشافي محمد– ط: دار الكتب العلمية– بيروت الأولى ١٤٢٢هـ.

حال المشبه، أي بيان مقدار الثواب المضاعف عند الله يوم القيامة .

وإن كنت أرى أن الغرض الأصيل من تلك الصورة البيانية هو بيان إمكان وقوع المعنى المتوارى خلف المشبه به الظاهر، لاسيما وأن وقت الحصول على الثواب مؤخر إلى يوم القيامة، ومن ثم اصطفى هذا المصدر التشبيهي للدلالة على بيان إمكان وقوعه، وإن هذا الأجر مما هو محقق الحصول، لأنه وعد الله، ولا يخلف الله وعده، وهو من قبيل ضرب الأمثال لتقريب المعنى للإفهام، وإخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة، فإن "أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفيّ إلى جليّ، وتأتيها بصريح بعد مكنّى، وأن تردّها في الشيء تعلّمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع، لأن العلم المستفاد من طرق الحواسّ أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حدّ الضرورة، يفضل المستفاد من جهة النّظر والفكر في القوة والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام"(١)، وهذا الأسلوب البياني يتناسب والفكرة الأم للسورة الكريمة، وهو الإيمان بالغيب ، فكان السياق المقالي آتيا وفق مقتضى السياق العام للسورة الكريمة فظهر التماسك بين أجزاء المعنى الواحد، وإن اختلفت المواطن.

وإنما حسن هذا المصدر التشبيهي في سياق التعبير القرآني المعجز؛ لما بين طرفي التشبيه من تقارب وتوافق في الوصف من جهات، ونكات، ولطائف، وإشارات دالة على حسن النظم، وقوة السبك، منها:

ــ تنكير كلمة " حبة " في جانب المشبه به ؛ للدلالة على ما يجب أن

(١) أسرار البلاغة – الشيخ عبد القاهر الجرجاني – صـ ١٢١ تحقيق محمود محمد شاكر أبو فهر طبعة المدني القاهرة الأولى ١٤١٢هـ ، ١٩٩١م .

يكون عليه الإنفاق من الخفاء الموجب للإخلاص في العمل .

ــ تنكير كلمة "حبة" للوحدة أو للتقليل، فهي حبة واحدة يضعها المرء في الأرض، كما أن ما ينفقه المنفق دينارا أو درهما، وإن كثر فهو إذا ما قيس بعطاء الله الواسع يعد قليلا، فأي عطاء كعطاء الله، وأي وعد كوعد الله.

ــ المنفق ماله في سبيل الله يخرجه من بين يديه ثم يغيب عن عينه فلا يعلم حاله، وكذا الحبة توضع بباطن الأرض وتغيب عن الأعين .

ــ تلك الصدقة القليلة تخرج في سبيل الله فينميها الله لصاحبها حتى يراها كثيرة عظيمة، وكذا تلك الحبة القليلة يرعاها الله تعالى وينميها حتى تخرج من أصلها حبات كثيرة، ومن ثم فقد جاء هذا المثل القرآني لبيان الفرق بين عطاء محدود، وهو عطاء البشر القاصر، وعطاء واسع ممتد، لا يستطيع واصف الوقوف له على حد، وهو العطاء الرباني المتوارى خلف العطاء المذكور، ثوابا متكاثرا متناميا، لا يعرف حقيقته سوى معطيه، وسع كل شيء علما.

واصطفاء التعبير بـــ (الكاف) في قوله: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ ؛ لاشتمالها على معنى المشاركة في الوصف دون المبالغة فيه، إشارة إلى أن هذا الوصف مع ما فيه من مضاعفة الأجر، حتى وصل إلى غايته الحسية، لا يستطيع للوصول إلى حقيقته الكاشفة لأن معنى المضاعفة في الأجر المتواري خلف هذا التشبيه لا يرتقي إليه وصف، ولا يقدر على حمله لفظ، ولا نستطيع أن نقول لقوة المشابهة بين الطرفين، فالفرق شاسع، والبون واسع، فلك أن تقابل لفظة ﴿حَبَّةٍ﴾ المفردة النكرة الدالة على الإفراد والقلة، بلفظة ﴿سَنَابِلَ﴾ وما تحمله من معنى الكثرة في بنائها الصرفي ولم يقل (سنبلات) جمعا للقلة، إذ السياق العام للآية يقوم

على المضاعفة والتكثير، فلا يناسبها القلة في التعبير، قال ابن القيم : " وتأمل كيف جمع السنبلة في هذه الآية على سنابل وهي من جموع الكثرة إذ المقام مقام تكثير وتضعيف وجمعها على سنبلات في قوله تعالى: وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ فجاء بها على جمع القلة لأن السبعة قليلة ولا مقتضى للتكثير" (١)، كما أن التعبير بالعدد سبع في قوله ﴿ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ﴾ لم يأت مقيدا لأفراد معدوده فيه وإنما هو عدد كنائي أريد به المبالغة في الكثرة وذلك لأسباب منها: أن سياق الآية دال على سعة عطاء الله، ومضاعفة الأجر العظيم على العمل القليل، والعدد سبع موسوم بالقلة في الحساب العربي، كما أن تقييد العدد بلفظ جمع الكثرة (سنابل) دون (سنبلات) الموضوع للقلة ، للدلالة على أنه قصد باللفظ معناه الدال على الكثرة والمضاعفة، وليس مبناه الدال على جمع من جموع القلة، زيادة على أن العدد (سبعة) أسلوب عربي يأتي للمبالغة في الوصف لما له من مزية، فالعرب يطلقون الأعداد : السبع والسبعين والسبعمائة ولا يريدون العدد في حصره وما يتطلبه من حصر معدوده وإنما يريدون المبالغة في الوصف، وهو كثير منتشر في كلامهم فقد يأتي العدد في الكلام بمنطوقه ولا يدل مفهومه على عدد معين، ولم يكن الغرض من ذكره الحصر أو قيد أفراد معدودة فيه، وإنما يأتي لغرض آخر رمت إليه البلاغة العربية، وهو كثير شائع في الأساليب العربية، كأن تقول: نصحتك سبعين مرة، ودعوت لك سبعين مرة، وزرتك سبعمائة مرة، فالأعداد –هنا– لم يقصد بها ما يفهم من منطوقها العددي، وإنما ذكرت لغرض المبالغة في كثرة القيام بالفعل وتكراره لحد المبالغة فيه.

والقرآن الكريم نزل بلغة العرب وطريقة أساليبهم في الكلام، ومن

(١) تفسير القرآن الكريم: ابن قيم الجوزية :١ / ١٥٧ .

ثم كان لمثل هذا النوع من الكلام مظان متنوعة بأغراض مختلفة، لم يأت العدد فيها لقصد حصر أفراد العدد في معدوده، أو تقييده في معين وإنما جيء به لغرض بلاغي رمى إليه المتكلم من كلامه، وكذا الحال في العدد مائة في قوله ﴿ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ ﴾ فالعدد لا مفهوم له هنا، وهو كناية عن الكثرة الكاثرة، أو المبالغة في الوصف بالكثرة، ولهذا فإن الإخبار بالعدد – هنا – لا ينافي غيره، بمعنى أن الحكم بعد العدد ثابت لا يتغير عما كان قبله ، وإنما الغرض من ذكر العدد المبالغة في وصف الشيء بالكثرة .

وعلى ذلك " فالتمثيل للتكثير لا للحصر ولذلك قال: ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ فيزيده على ذلك زيادة لا تقدر ولا تحصر، فذلك العدد لا مفهوم له، ولا يحد عطاؤه عليم بمن يستحق المضاعفة من المخلصين الذين يهديهم إخلاصهم إلى وضع النفقات في مواضعها التي يكثر نفعها وتبقى فائدتها زمنا طويلا، كالمنفقين في إعلاء شأن الحق وتربية الأمم على آداب الدين وفضائله التي تسوقهم إلى سعادة المعاش والمعاد، حتى إذا ما ظهرت آثار نفقاتهم النافعة في قوة ملكهم وسعة انتشار دينهم وسعادة أفراد أمتهم عاد عليهم من بركات ذلك وفوائدهم ما هو ما أنفقوا بدرجات لا يمكن حصرها[1].

وعلاقة تلك الصورة التشبيهية للفكرة العامة للسورة ظاهر واضح حيث إنه "لما انقضى جواب السؤال عن الملك الذي لا تنفع عنده شفاعة بغير إذنه ولا خلة ولا غيرهما وما تبع ذلك إلى أن ختم بقصة الأطيار التي صغت إلى الخليل بالإنفاق عليها والإحسان إليها ثنى الكلام إلى الأمر

(١) ينظر : تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)- : محمد رشيد رضا : ٣/٥١- الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – سنة النشر:١٩٩٠ م.

بالنفقة قبل ذلك اليوم الذي لا تنفع فيه الوسائل إلا بالوجه الذي شرعه بعد قوله: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴾[1] نظراً إلى أول السورة تذكيراً بوصف المتقين حثاً عليه، فضرب لذلك مثلاً صريحة لمضاعفتها فاندرج فيه مطلق الأمر بها اندراج المطلق في المقيد وتلويحه الذي هو من جملة المشار إليه بحكيم للإحياء، فصرح بأن النفقة المأمور بها من ذخائر ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه إلا ما شرعه وهو من جليل العزة، وساقه على وجه يتضمن إحياء الأموات الذي هو أنسب الأشياء لما قبله من نشر الأموات، فهو إيماء إلى الاستدلال على البعث بأمر محسوس، وذلك من دقيق الحكمة"[2] .

صورة فاقد شرط القبول وعلاقتها بالمعنى الأم للسورة

قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.

صورة من الإنفاق مكملة عطاء الله تعالى للمنفق في سبيله، جاءت في أسلوب نهي عن إبطال الصدقات، حفاظا على ما اكتسبته من ثواب مضاعف متوارى خلف ما ذكر من عدد، وإبطال الصدقة معناه : تقليل ما ضعف من ثواب، أو بطلانه كلية، بعدم قبول الله تعالى لها بسبب ما أتبعها

(١) سورة : الحديد : آية : ١١ .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور – إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي: ٤/ ٧٣ ، ٧٤ – الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

من منٍّ وأذى، وقد سبق تلك الصورة وضع شرط قبول الصدقات، وطريق مضاعفتها إلى ما هو متوارى من ثواب ، ويكمن ذلك الشرط في البعد كل ما ينقص قدر الصدقة أو يبطلها، ومن ثم تقع المضاعفة، وتثاب بالقبول، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾، أخبر الله تعالى في هذه الآيات أن الصدقات إذا لم تكن خالصة لله عارية من من وأذى فليست بصدقة لأن إبطالها هو إحباط هو إحباط ثوابها فيكون فيها بمنزلة من لم يتصدق وكذلك سائر ما يكون سبيله وقوعه على وجه القربة إلى الله تعالى فغير جائز أن يشوبه رياء ولا وجه غير القربة فإن ذلك يبطله كما قال تعالى ﴿ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ (١)، وقال تعالى﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ (٢)، فما لم يخلص لله تعالى من القرب فغير مثاب عليه فاعله(٣) ، قال الكلبي: نزلت في عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، أما عبد الرحمن بن عوف فإنه جاء إلى رسول الله ﷺ بأربعة آلاف درهم صدقة، فقال: كان عندي ثمانية آلاف درهم فأمسكت منها لنفسي وعيالي أربعة آلاف درهم، وأربعة آلاف أقرضتها ربي. فقال له رسول الله ﷺ: بارك الله لك فيما أمسكت، وفيما أعطيت، وأما عثمان رضي الله عنه فقال: علي جهاز من لا جهاز له في غزوة «تبوك»، فجهز المسلمين بألف بعير بأقتابها وأحلاسها، وتصدق برومة- ركية كانت له- على المسلمين، فنزلت فيهما هذه الآية. (٤)

(١) سورة : محمد : آية : ٣٣ .

(٢) سورة : البينة : بعض آية : ٥ .

(٣) أحكام القرآن- أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص : ٢ / ١٧٢- تح : محمد صادق القمحاوي- ط: دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤٠٥ هـ.

(٤) أسباب نزول القرآن – أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، النيسابوري، : صـ ٨٩ ت: كمال بسيوني زغلول ط: دار الكتب العلمية بيروت الأولى،١٤١١ هـ.

وقوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ بإضافة المال إليهم، تنبيها لهم بأن عدم قبولها تقع عليهم حسرة وندامة ، فيشتد الحرص على البعد عن كل ما يبطل الصدقة، أو يقلل مضاعفتها، رجاء الثواب الكامل.

وقوله : ﴿ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وهو شرط أول من شروط القبول والمضاعفة وإنما قدمه حثا لهم عن الإخلاص وقت العطاء، وأنه أول أبواب القبول، وطريق المضاعفة، وإلا ردت عليه بالحسرة والخسران.

وقوله : ﴿ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ ﴾ ، ثم للتفاوت الرتبي بين الإنفاق وبين عدم إتباعها بالمن أو الأذى، وأن تركهما خير من الإنفاق، كما جعل الاستقامة على الإيمان خيرا من الدخول فيه بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾ [1] ، فهو من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى ، دفعا للصدقات للوصول إلى أعلى الدرجات .

والمن أن يعتد بإحسانه على من أحسن إليه، والأذى أن يتطاول عليه بسبب ما أنعم عليه ، والمنُّ نوعان: أحدهما: منّ بقلبه من غير أن يصرح له بلسانه وهذا إن لم يبطل الصدقة فهو من نقصان شهود منة الله عليه في عطائه المال وحرمان غيره وتوفيقه للبذل ومنع غيره منه فلله المنة عليه من كل وجه. فكيف يشهد قلبه منة لغيره؟ ، والنوع الثاني: أن يمن عليه بلسانه فيعتدي على من أحسن إليه بإحسانه ويريه أنه اصطنعه وأنه أوجب عليه حقا وطوقه منة في عنقه فيقول: أما أعطيتك كذا وكذا؟ ويعدد أياديه عنده [2].

وهذه الآية وما ذكر فيها من شرط معنوي من التقسيم البديع الذي

(١) سورة : فصلت : بعض آية : ٣٠ ، الحديد : بعض آية :١٣ .

(٢) التفسير القيم – تفسير القرآن الكريم : صـ ١٥٨ .

شمل كل أنواع المقسم، حيث إن المنفق في سبيل الله إنما يكون على أحد ثلاثة أوجه، إما أن يريد وجه الله تعالى ويرجو ثوابه، فهذا لا يرجو من المنفق عليه شيئا ولا ينظر من أحواله في حال سوى أن يراعي استحقاقه، وهو المستحق بالأجر والمضاعفة المذكورة في قوله : ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، وإما أن يريد من المنفق عليه جزاء بوجه من الوجوه، فهذا لم يرد وجه الله بل نظر إلى هذه الحال من المنفق عليه، وهذا هو الذي متى أخلف ظنه من بإنفاقه وآذى، وهو المعني بقوله ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾وإما أن ينفق مضطرا دافع غرم إما لماتة للمنفق عليه ، أو قرينة أخرى من اعتناء معتن ونحوه، فهذا قد نظر في حال ليست لوجه الله، وهذا هو الذي متى توبع وحرج بوجه من وجوه الحرج آذى،(١) وهو المعني بقوله:﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾، والتعبير بأسلوب التقسيم يجعل المنفقين المخاطبين بما جاء في الآيات يقفون أمامها بتقسيماتها الدقيقة الصحيحة التي حوت حال النفس مع كل صور الإنفاق، ويستعرضون أنفسهم استعراضا دقيقا في ضوء ما ذكر ، وقد فطنوا صور الصلاح من مواطن الفساد.

ولما كان المقام وعظا وإرشادا؛ لبيان صحيح العمل بصحيح العقيدة، ناسب أن يأتي أسلوب التقسيم في صورة المقابلات المتعددة، لفظية ومعنوية؛ ليفسح الطريق أمام المخاطب ليدرك بفطرته سبل الرشاد ، ويضعه أمام نفسه مسئولا مسئولية كاملة في الخيار الذي كفله القرآن

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ١/ ٣٥٦ .

الكريم له ، وأسلوب المقابلة من الأساليب المحببة إلى النفوس، حين يقود إليها الطبع، ويطلبها السياق، فترد في الكلام سمحة متساوية ، ولعل السر في وقوع الحسن في كلا اللونين البديعين هو أنها "تعين على تجلية الحقائق، وإبراز معانيها"(١)، ولفت النظر إلى المعنى المراد والتأكيد عليه بالتقسيم المبني على اجتماع الشيء وضده.

ويمضى القرآن مخففا من آثار غريزة التملك، فيذكر هؤلاء الذين بأيديهم المال أن الذي أعطاهم ذلك المال إنما هو الله، الغني الحليم وهو الذي يطالبهم بأن يعطوا عباده الفقراء بعض ما أعطاهم هو من المال ، دون منٍ ولا أذى في قوله :﴿ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾ ، فيبين لهم أن هذا المال الذي تحت أيديهم إنما هو في الواقع مال الله، وأنهم ليسوا بأكثر من مستخلفين فيه، أعطاه إياهم لينفقوه حيث يرشدهم إلى مواضع إنفاقه، وكيفية إنفاقه على الصورة المقبولة، والمضاعف ثوابها ، إلى ما لا يعلم وصفه وكنهه إلا الله تعالى.

ثم يأتي التشبيه المتتابع في قوله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ، كاشفا بيان حال المشبه وهو من يتبع صدقاته بالمن والأذى، بأن أعماله لا وزن لها عند الله تعالى مثلها في ذلك مثل أعمال الكافرين فأعمالهم مهما عظمت هباء منثورا، وفي الآية تشبيهان لمشبه واحد :

التشبيه الأول : صورة من يتبع صدقاته بالمن والأذى بالذي ﴿ يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ ، ومن ثم كان الغرض من

(١) نقد الشعر- قدامة بن جعفر صـ ١٤١، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي- ط: دار صادر بيروت .

هذا التشبيه تقبيح المشبه ترهيبا من الوقوع في حاله، فحاله حال المرائي بعمله، ولا يقصد به الإخلاص في العمل ، ثم يزداد الوصف تقبيحا وترهيبا بكونه﴿ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ ،غاب عقله، وضل سعيه ، وهو يحسب أنه يحسن صنعا .

والتشبيه الثاني : حالة من يتبع صدقاته بالمن والأذى ب ﴿ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ﴾، والصفوان: الحجر الأملس. والوابل: المطر العظيم. والصلد: الآجر النقي، والآية تمثل أعمال الكافرين الصالحة– بحسب الظاهر– كصلة القُربَى والعطف على الفقراء، وإغاثة الملهوف.

وهذا المثل صورة أدبية مستوفية العناصر والأركان، موفية بالغرض ، وهي تشبيه تمثيل مُثلت فيه أعمال الكافرين بتراب منثور على حجر من الصوان الأملس. فهطلت عليه الأمطار فحملته وذهبت به كل مذهب فلم يبق منه فوق الحجر شيء، والتشبيه مركب شُبِّهت فيه هيئة بأخرى.

ويجوز أن يكون من قبيل المفرد، فيُراد بالصفوان الكفر والرياء، إشارة إلى عقم الكفر والرياء، شبه كل منهما بالصفوان الذي لا ينبت ولا يمسك ماءً، ويُراد بـــ "التراب المنثور فوق الصفوان خاصة: عمل الكافرين، لا مطلق تراب، فالقيد لازم، لأن مطلق تراب مظنة الإنبات، وليست كذلك أعمال الكافرين، ويراد بالوابل : الإسلام؛ لأنه حكم ببطلان الكفر وما يصدر عنه من عمل، وإذا قارنا بين (الصفوان) الذي هو الكفر والنفاق، (والوابل) الذي هو الإسلام أدركنا الفرق واضحاً بين العقيم الماحل، والثمر النضير [١]، وعليه فالهاء في قوله:﴿ فَمَثَلُهُۥ ﴾ فيها

(١) ينظر : خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د:عبد العظيم إبراهيم المطعني: ٢ / ٢٢١، ٢٢٢ – مكتبة وهبة– الأولى، ١٤١٣ هـــ – ١٩٩٢ م.

قولان : " أظهرهما أنها تعود على الذي ينفق رئاء الناس، لأنه أقرب مذكور، والثاني: أنها تعود على المان المعطي، كأنه تعالى شبهه بشيئين ، بالذي ينفق رئاء، وبصفوان عليه تراب، ويكون قد عدل من خطاب إلى غيبة، ومن جمع إلى مفرد" (١)، والوجه الأول هو الذي يقوى نكتة إدخاله في المرائين، لإجراء المثل عليه كأنه منهم، زيادة في التنفير، وإمعانا في التحذير(٢)، قال الرازي : "واعلم أن هذا مثل ضربه الله تعالى لعمل المان المؤذي، ولعمل المنافق، فإن الناس يرون في الظاهر أن لهؤلاء أعمالا، كما يرى التراب على هذا الصفوان، فإذا كان يوم القيامة اضمحل كله وبطل لأنه تبين أن تلك الأعمال ما كانت لله تعالى، كما أذهب الوابل ما كان على الصفوان من التراب.(٣).

ومناسبة تلك الصورة التشبيهية المتتابعة بما سبقتها من صورة المنفق المضاعف له ثواب عمله هي أنه " لما شرط لقبولها شرطاً وهّى ما عري منها عنه أتبعه التصريح بالنهي عن إهماله والنص على محقه لها

(١) ينظر: الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية للشيخ سليمان بن عمر العجلي الشافعي : ١ / ٢٢٠ ط : عيسى الحلبي – بمصر .

(٢) أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم : ٢٥٦ .

(٣) واعلم أن في كيفية هذا التشبيه وجهين: الأول: أن العمل الظاهر كالتراب، والمان والأذى والمنافق كالصفوان ويوم القيامة كالوابل ، وأما على قول المعتزلة فالمن والأذى كالوابل. الوجه الثاني في التشبيه: وهو أن أعمال العباد ذخائر لهم يوم القيامة، فمن عمل بإخلاص فكأنه طرح بذرا في أرض فهو يضاعف له وينمو حتى يحصده في وقته، ويجده وقت حاجته، والصفوان محل بذر المنافق، ومعلوم أنه لا ينمو فيه شيء ولا يكون فيه قبول للبذر، والمعنى أن عمل المان والمؤذي والمنافق يشبه إذا طرح بذرا في صفوان صلد عليه غبار قليل، فإذا أصابه مطر جود بقي مستودعا بذره خاليا لا شيء فيه، ألا ترى أنه تعالى ضرب مثل المخلص بجنة فوق ربوة، والجنة ما يكون فيه أشجار ونخيل، فمن أخلص لله تعالى كان كمن غرس بستانا في ربوة من الأرض، فهو يجني ثمر غراسه في أوجات الحاجة وهي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها متضاعفة زائدة، وأما عمل المان والمؤذي والمنافق، فهو كمن بذر في الصفوان الذي عليه تراب، فعند الحاجة إلى الزرع لا يجد فيه شيئا. ينظر : مفاتيح الغيب : ٧ / ٤٧ .

وإبطاله وضرب لذلك مثلاً وضرب للمثل مثلاً مبالغة في الزجر عن ذلك فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، أي أقروا بذلك صدقوا إقراركم بأن ﴿لَا تُبْطِلُواْ ﴾، قال الحرالي: فبين أن ما اشترطه في الأجر المطلق مبطل للإنفاق، هـ﴿ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ فربما وازى عقابهما ثواب الصدقة أو زاد فكان كالإبطال لأوله إلى أن لا ثواب قال الحرالي: فألحق عمل الإخلاص بآفة ما تعقبه بما بني على أصل الرياء"(١) ، كما انه لم يذكر في السياق عقوبة من يتبع صدقاته بالمن والأذى، وإنما ذكر الشرط، وأن من اجتنب المن والأذى في صدقته له أجره عند ربه، فلم يذكر جزاء من قارف إثمي المن والأذى، وإنما ذكر أن القول المعروف والمغفرة خير من صدقته يتبعها أذى، فجاء المثلان ليذكرا حال الذي يتبع صدقته بالمن والأذى(٢). فهي صور متتابعة تسجل خسارة من افتقد شرط القبول ، وعدم النفع مما يرجى منه نفعا وهذا أمر معنوي إلى صورة الشيء المحس المشاهد ، واللافت في هذه الطريقة ذلك الانتقال من تشبيه إلى آخر، وإدخال غرض في غرض آخر يفجأ به المخاطب زيادة في توضيح معنى البطلان الذي يعقبه الندامة والخسران، فإننا "نرى المشبه به يقع مشبها في صورة تالية: يشبه المنفق المرائي المجرد من الإيمان بالحجر الذي لا ينفع معه المطر، سوى أنه يزيل ترابه فيتركه صلدا، ولا تجد لهذه الصياغة العجيبة نظيرا في كلام العرب، حيث تجد المشبه به مشبها في صورة تالية، فهو مركز الصورتين، والجامع بين التشبيهين، وهذا يشير إلى أن المان بصدقته لا يخلو من القسوة والجمود، فهو لا يكتسب ظلا من الحجر، الذي لا ينفع معه المطر"(٣)

(١) نظم الدرر : ٤، ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) ينظر : أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم : ٢٥٦ .

(٣) أساليب البيان والصورة القرآنية – د/ محمد إبراهيم شادي : صـ ٤٧٠ – طبعة : دار والي بالمنصورة – ١٩٩٥م .

واختيار الصفوان (الحجر الأملس) وعليه تراب أصابه مطر غزير كمصدر تشبيهي لصورة المنفق الذي أتبع إنفاقه بالمن والأذى، أو المنافق الذي يظهر الحق ويبطن الكفر، لكونها مناسبة لتلك الصورة الحسية في هذا للسياق العقدي، فبين طرفي التشبيه جوامع عدة قربت بين طرفي التشبيه، وساعدت على تقريب المعاني المقصودة للإفهام .

ففي اختيار تلك الصورة لهذا السياق التعبدي تناسق عجيب بين أجزائها باختيار الصفوان مثل للنفس الخبيثة المنانة المؤذية ، والتراب، الذي يصور غلاف الرياء والسمعة الذي تغلف به هذه النفس أعمالها ، ومن ثم لا نفع فيها ولا فائدة مرجوة منها، وكل هذا يجعل للسياق المقالي أثرا قويا في الخروج بهذه المعاني المعنوية العقلية إلى صور مشاهدة محسة، وتلك من أبلغ صور التشبيه.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ تذييل لهذا المعنى فيه "تعريض بأن الرياء والمن والأذى على الإنفاق من صفات الكفار ولا بد للمؤمن أن يتجنب عنها"، وهو تحذير المؤمنين من تسرب أحوال الكافرين إلى أعمالهم فإن من أحوالهم المن على من ينفقون وأذاه.(١)

صورة المنفق المقترن بشرط القبول وعلاقتها بالمعنى الأم

قوله تعالى ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل- ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي ١ / ١٥٨ – ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي- ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت-الأولى- ١٤١٨ هـ، التحرير والتنوير: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد- محمد الطاهر بن عاشور: ٢ / ٥٠ طبعة :الدار التونسية للنشر تونس ١٩٨٤ م.

لما فرغ من مثل العاري عن الشرط ضرب للمقترن بالشرط من الإنفاق مثلاً منبهاً فيه على أن غيره ليس مبتغى به وجه الله"[١] ؛ لبيان الفرق بين الحالتين، المبالغة في المدح والثناء على المنفقين المخلصين، قال فخر الدين الرازي: "اعلم أن الله تعالى لما ذكر مثل المنفق الذي يكون مانا ومؤذيا ذكر مثل المنفق الذي لا يكون كذلك، وهو هذه الآية، وبين تعالى أن غرض هؤلاء المنفقين من هذا الإنفاق أمران أحدهما: طلب مرضاة الله تعالى،... والغرض الثاني: هو تثبيت النفس[٢]، والصورة من التشبيه المركب المبني على انتزاع هيئة من هيئة، فقد شبه المنفق الراجي ابتغاء مرضات الله وقد طهرت نفسه من الشح، وعمله من الرياء والسمعة بالحبة التي نبتت في تربة قوية شديدة جيدة الزرع، خصبة عظيمة أصابها مطر قليل أو كثير فهي تؤتي أكلها بإذن ربها، ووجه الشبه: "هو الهيئة الحاصلة من مجموع أشياء تكامل بها تضعيف المنفعة، فالهيئة المشبهة هي النفقة التي حف بها طلب رضي الله والتصديق بوعده فضوعفت أضعافا كثيرة أو دونها في الكثرة، والهيئة المشبهة بها هي هيئة الجنة الطيبة المكان التي جاءها التهتان[٣] فزكا ثمرها وتزايد فأكملت الثمرة، أو أصابها طل فكانت دون ذلك. [٤]

---

(١) نظم الدرر : ٤ / ٨٢ .

(٢) وفي تثبيت النفس وجوه: أحدها: أنهم يوطنون أنفسهم على حفظ هذه الطاعة وترك ما يفسدها، ومن جملة ذلك ترك إتباعها بالمن والأذى، وثانيها: وتثبيتا من أنفسهم عند المؤمنين أنها صادقة في الإيمان مخلصة فيه، وثالثها: أن النفس لا ثبات لها في موقف العبودية، إلا إذا صارت مقهورة بالمجاهدة، ورابعها: أن ثبات القلب لا يحصل إلا بذكر الله ، فمن أنفق ماله في سبيل الله لم يحصل له اطمئنان القلب في مقام التجلي، إلا إذا كان إنفاقه لمحض غرض العبودية ... فإذا كان إنفاق العبد لأجل، عبودية الحق لا لأجل غرض النفس ، فهناك اطمأن قلبه، واستقرت نفسه، ولم يحصل لنفسه منازعة مع قلبه، ولهذا قال أولا في هذا الإنفاق إنه لطلب مرضات الله، ثم أتبع ذلك بقوله وتثبيتا من أنفسهم، وخامسها: أنه ثبت في العلوم العقلية، أن تكرير الأفعال سبب لحصول الملكات. [ينظر : مفاتيح الغيب:٧ / ٤٨ ، ٤٩].

(٣) التهتان والتهتال واحد : المطر الشديد المتتابع: لسان العرب :: هتن – هتل .

(٤) التحرير والتنوير:: ٣ / ٥٢ .

والغرض من التشبيه هو بيان حال صاحب النفقة الطيبة في ذهن السامع، وذلك بإبراز المعنوي في صورة الحس، مع تزيين المشبه[١]، ويأتي هذا التشبيه" ليعرض صورة أخرى، تعطي معنى في الطرف الآخر المقابل لهذا المعنى، والمتلاقي مع التشبيه الأول في عموم الغرض، فيشبه النفقة ابتغاء وجه الله بجنة بربوة عالية ، فهي نقية التربة...إذا أصابها وابل تشربت منه ما تزداد به خصوبة، وتركت الباقي ينحدر إلى القيعان، فإذا لم يصبها وابل لا تظمأ لأنها ترتضع من ثدي آخر، وهو قطر الندى بطهره ونقائه.. فهي مخصبة في كل حال، نامية أبدا ...وهذا هو الجامع بين الطرفين، ومن خصائص أسلوب القرآن أنه يقرن المعاني المتعارضة في سياق واحد لتتميز الحقائق، فحين يذكر الجنة والأنهار التي تجري ، يذكر النار والجحيم ، وحين يصف دخائل الذين آمنوا واطمأنت قلوبهم، يذكر الذين كفروا وتمزقت نفوسهم وهكذا"[٢]، وعلاقة هذا المثل بما قبله أنه تعالى لما ذكر حال من لم يقيد صدقته بشرط القبول، وأتبعها بما يفسدها ويبطل ثوابها بالمن والأذى، جاء بما يقابله من عمل متقبل وصدقة مضاعفة لتقييده بشرط ابتغاء وجه الله ، وتطهير النفس من علامات الرياء والسمعة، وهو زيادة توضيح وبيان لما ينفق في سبيل الله تعالى فيما سبق من آيات،" قال الحرالي: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ ﴾"عطفاً على {الذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر} عطف مقابلة وعلى ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ﴾ عطف مناسبة[٣].

(١) أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم : ٢٥٣ .

(٢) التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان : ١٥٦ .

(٣) نظم الدرر : ٤ / ٨٢ .

ويرتبط هذا المثل بما قبله، ويتفاعل معه لإيضاح الفروق بين النموذجين، ويتمّ هذا التفاعل، عن طريق التماثل في عناصر التصوير، والتضاد في آثارها وإيحاءاتها، في الوقت نفسه، فالوابل الهاطل من السماء مكوّن أساسي في الصورتين، ولكن أثره مختلف فيهما، فهو هنا عامل نماء وحياة، لقابلية الربوة للخير، واستعدادها له، وهي تمثّل قلب المؤمن العامر بالإيمان والمستعد لبذل الخير والعطاء باستمرار، أما الوابل على الصفوان، فقد كشف جوهره المجدب وعدم نفعه لاستقبال الخير، ولو ستره وراء طبقة ترابية رقيقة التي تمثل عمل الخير في الظاهر، فالفروق واضحة في المثلين، فهنا جنة بربوة وثمار وأرض طيبة، وتربية صالحة للنماء والحياة والسماء تجود عليها بغيثها الكثير أو القليل، وهي تستقبله، فتفيض عطاء ونماء، وهناك حجر صلد، وتراب خادع، وتربة فاسدة، وموت وضياع، وتبرز الفوارق أيضا في ملامح النموذجين من خلال تصوير المثلين(١)، وإنما خص الربوة لأن نباتها يكون أحسن من غيره،... والمعنى: أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله لا تضيع بحال وإن كانت متفاوتة، ويجوز أن يعتبر التمثيل ما بين حالهم باعتبار ما صدر عنهم من النفقة الكثيرة والقليلة، وبين الجنة المعهودة باعتبار ما أصابها من المطر الكثير والقليل، فكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكلها، فكذلك نفقتهم جلت أو قلت بعد أن يطلب بها وجه الله زاكية زائدة في أجورهم. (٢)

على أنه يمكن حمل هذه الصورة التشبيهية على أن المثل ضرب للقلب المنفق ابتغاء هذا القيد الذي ذكره القرآن للجنة بقوله: ﴿ جَنَّةٍ

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم: ١٨٦ .

(٢) ينظر: فتح القدير – محمد بن علي الشوكاني اليمني: ١ / ٣٢٨، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت– الأولى – ١٤١٤ هـ، بتصرف.

بِرَبْوَةٍ ﴾ أرأيت لو كانت بمنخفض، وفيها كهذا الخير الذي أشار القرآن إليه وتزيد ، أكانت تصلح للمثل؟ لن تصلح وربك؛ لأن في هذا القيد لمحا لقلب المؤمن، وعلوه في درجات اليقين، وقد اختار الجنة مشبها به تذكيرًا للمنفق بجزائه في الآخرة، والآية مختتمة بهذا التذييل ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾، ولو كان المراد مضاعفة النفقة لختمت الآية بصفة من صفات الله التي تناسب الغرض كما كان في المثال الأول(١).

وهذا الوجه هو الأولى بالقبول لكون المضاعفة أو بطلانها محلها قلب المنفق، لا الإنفاق ذاته؛ لأنه ما نال قدر المضاعفة، وما كسب صورة الجنان التي على الربوة إلا من صلحت نيته، وحسنت طويته، وخلصت عبادته، فرب عمل تكثره نية صادقة، ورب عمل تحقره نية كاذبة، "والخلاصة: أن المراد بهذا التشبيه قلب المؤمن، ويدل على ذلك وقوعه في سياق أثر النفقة على القلوب، وهذا من سر التنويع في المشبه به الذي يأتي لإبراز جوانب ليست في التشبيه الأول، فقد تنوع المشبه به، لتنوع

(١) ينظر: أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم : ٢٥٥ . وهذا ما ذهب إليه الإمام محمد عبده في استخراج وجه الشبه بقوله: ووجه الشبه عندي: أن المنفق ابتغاء مرضاة الله والتثبيت من نفسه هو في إخلاصه، وسخاء نفسه، وإخلاص قلبه، كالجنة الجيدة التربة الملتفة الشجر العظيمة الخصب في كثرة بره وحسنه، فهو يجود بقدر سعته، فإن أصابه خير كثير أغدق ووسع في الإنفاق، وإن أصابه خير قليل أنفق منه بقدره، فخيره دائم وبره لا ينقطع؛ لأن الباعث عليه ذاتي، لا عرضي كأهل الرياء، وأصحاب المن والإيذاء...، فالوابل والطل على هذا عبارة عن سعة الرزق وما دون السعة...، إن النية الصالحة في الإنفاق كالوابل للجنة فيها تكون النفقة نافعة للناس؛ لأن أصحابها يتحرون فيضعون نفقتهم موضع الحاجة لا يبذرون بغير روية...، وأن أمثال هؤلاء المخلصين لا يخيب قاصدهم؛ لأن رحمة قلوبهم لا يغور معينها فإن لم تصبه بوابل من عطائها لم يفته طله، فهم كالجنة التي لا يخشى عليها اليبس والزوال، وقد ختم الآية بقوله:﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ليذكرنا بأنه لا يخفى عليه المخلص من المرائي تحذيرا لنا من الرياء الذي يتوهم صاحبه أنه يغش الناس بإظهاره خلاف ما يضمر. فكأنه يقول: إن الله لا يخفى عليه ما تنطوي عليه سريرتك أيها المنفق فعليك أن تخلص له.

المشبه، كما يقتضي السياق، فالتشبيه الأول اهتم ببيان حال النفقة في المضاعفة، واختار العناصر المناسبة لهذا المراد، والتشبيه الثاني اهتم ببيان حال المنفق، فجعله كالجنة، ودخلت قيود في التشبيه تقوي هذا المراد.(١).

صورة المنفق الخاسر وعلاقتها بالمعنى الأم

قوله تعالى:﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾

ومناسبة تلك الصورة البيانية بما قبلها أنه تعالى لما كشف عن حالة من يتبع نفقته بالمن والأذى، وجعل عاقبة أمره خسرا، جاء بمثل آخر في حق من يتبع إنفاقه بالمن والأذى، مبالغة في التحسر والندامة على ما فاته من فضل، والمعنى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ ﴾الهمزة فيه للإنكار، أي إنكار وقوع أن يود الإنسان لو تكون له جنة معظم شجرها الكرم والنخل اللذان هما أجمل الشجر وأنفعه، كثيرة المياه حاوية لأنواع من الثمرات الكثيرة قد نيطت بها آماله، ورجا أن ينتفع بها عياله، ويصيبه الكبر الذي يقعده عن الكسب في حال كثرة ذريته وضعفهم عن أن يقوموا بشأنه حتى لا يبقى له ولا لهم مورد للرزق غير هذه الجنة، وبينا هو كذلك إذا بالجنة قد أصابها الإعصار، فأحرقها بما فيه من سموم النار(٢)، ﴿أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾جعل الجنة منهما مع ما فيها من سائر الأشجار تغليبا لهما لشرفهما وكثرة منافعهما،

(١) ينظر: أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم : ٢٥٥ .

(٢) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) – محمد رشيد رضا :٣ / ٥٩– الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – سنة النشر: ١٩٩٠ م.

ثم ذكر أن فيها من كل الثمرات ليدل على احتوائها على سائر أنواع الأشجار، ويجوز أن يكون المراد بالثمرات المنافع. ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ أي كبر السن، فإن الفاقة والعالة في الشيخوخة أصعب، والواو للحال أو للعطف حملا على المعنى، فكأنه قيل: أيود أحدكم لو كانت له جنة وأصابه الكبر. ﴿ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ ﴾صغار لا قدرة لهم على الكسب، ﴿ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ﴾عطف على أصابه، أو تكون باعتبار المعنى ، والإعصار ريح عاصفة تنعكس من الأرض إلى السماء مستديرة كعمود، والمعنى تمثيل حال من يفعل الأفعال الحسنة ويضم إليها ما يحبطها كرياء وإيذاء في الحسرة والأسف، فإذا كان يوم القيامة واشتدت حاجته إليها وجدها محبطة بحال من هذا شأنه، وأشبههم به من جال بسره في عالم الملكوت، وترقى بفكره إلى جناب الجبروت، ثم نكص على عقبيه إلى عالم الزور والتفت إلى ما سوى الحق وجعل سعيه هباء منثورا. ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي تتفكرون فيها فتعتبرون بها(١).

والآية من التشبيه "الذي يذكر فيه الطرفان على وجه لا ينبئ عن التشبيه، وإنما هو مكنون في الضمير لا يظهر إلا بعد تأمل"(٢)، فهي صورة تشبيه لا توضع فيها أركانه، ولا تظهر فيه طرفاه، بل يلمحان في التركيب، ولذا أطلق عليه التشبيه الضمني، أو التشبيه المعنوي. فالمشبه في الآية حال المنفق الذي أتبع نفقته بالمن والأذى، وما عليه من الحسرة والندامة على ما فاته من خير عند شدة الحاجة إليه، المشبه به تلك الجنة المذكورة بصفاتها وقيودها المتعددة التي تساعد على إذكاء نار الحسرة

(١) ينظر: تفسير البيضاوي : أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ١ / ١٥٩ .

(٢) ينظر: حاشية الشيخ محمد الإنبابى على رسالة الشيخ محمد الصبان في علم البيان ص / ٣٧ – المطبعة الأميرية ببولاق– الطبعة الأولى ١٣١ هـ،

والندامة عند ضياعها،– مع شدة الحاجة إليها– . ووجه الشبه : شدة التحسر والندامة، والشعور بخيبة أمل في وقت يرجى فيه الأمل، ويطلب فيه النفع، فهو تشبيه ضمني مركب لتركيب طرفي التشبيه جاء لغرض تقبيح حال المشبه، والمبالغة في ذمها ومقتها، وإظهار الحسرة واليأس على صاحبها. قال صاحب المنار: أما وجه التمثيل فقد خصوه بالمرائي، وقالوا: إن المعنى أنه سيكون في يوم القيامة عند شدة الحاجة إلى ثواب نفقته التي راءى بها، كذلك الشيخ الكبير الذي احترقت جنته التي لا معاش له سواها عندما كثر عياله الضعفاء، وعجز هو عن العمل فلا يملك من ثوابها شيئا، ولا يقدر أن يكسب ما يغنيه عنه، أقول: إن المثل ينطق أيضا على من أبطل صدقته بالمن والأذى، وأنه ليس خاصا بالآخرة ؛ فإن باذل المال للفقراء وفي المصالح العامة يكون له من الجاه والمكانة عند الناس ما يشبه تلك الجنة التي وصفها المثل في رونقها ومنافعها، ويوشك أن يذهب مال هذا المنفق تشتد حاجته وتقصر يده حتى لا يكون له مرتزق إلا ما غرسته يده من جنته تلك فيحاول أن يجني منها فيحول دون ذلك إعصار من المن والأذى، أو من ظهور الرياء فيحرقها حتى تكون كالصريم لا تؤتي ثمرتها، ولا تسر رؤيتها، كذلك تكون عاقبة أهل الرياء وذوى المن والإيذاء، ينبذهم الناس عند شدة حاجتهم إلى الناس" (١)

وعلى هذا فالمعنى إنكار أن يكون للإنسان جنة في غاية الحسن والنهاية، كثيرة النفع، وكان الإنسان في غاية العجز عن الكسب وفي غاية شدة الحاجة، وكما أن الإنسان كذلك فله ذرية أيضا في غاية الحاجة، وفي غاية العجز، ولا شك أن كونه محتاجا أو عاجزا مظنة الشدة والمحنة، وتعلق جمع من المحتاجين العاجزين به زيادة محنة على محنة، فإذا أصبح الإنسان وشاهد تلك الجنة محرقة بالكلية، فانظر كم يكون في قلبه من الغم

(١) ينظر: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) : ٣ / ٥٩ .

والحسرة، والمحنة والبلية تارة بسبب أنه ضاع مثل ذلك المملوك الشريف النفيس"[1].

ونلاحظ في هذه الآية اسْتِقْصَاءَ عجيباً، يزيد من تحسر المان بنفقته، المتبع صدقاته بالأذى، ويوضح حالته، ويرسم خيبته، وقت طلب الحاجة وشدة العوز لها، وفقدانها بعد الحصول عليها، ماثلة أمام عينيه ، فالاستقصاء البلاغي: أن يتناول المتكلم معنى فيستقصيه فيأتي بجميع عوارضه ولوازمه بعد أن يستقصي جميع أوصافه الذاتية بحيث لا يترك لمن يتناوله بعده فيه مقالا[2] .

فإنه تعالى لو اقتصر على قوله ﴿ جَنَّةٌ ﴾ لكان كافيا ولكنه لم يقف عند ذلك حتى قال في تفسيرها: ﴿ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ فإن مصاب صاحبها بها أعظم، ثم زاد ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ متمما لوصفها بذلك ثم كمل وصفها بعد التتميمين فقال: ﴿ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾فأتى بكل ما يكون في الجنان ليشتد الأسف على إفسادها ثم قال في وصف صاحبها: ﴿ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ ﴾ ثم استقصى المعنى في ذلك بما يوجب تعظيم المصاب بقوله بعد وصفه بالكبر ﴿ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ﴾ولم يقف عند ذلك حتى وصف الذرية بالضعفاء ثم ذكر استئصال الجنة التي ليس لهذا المصاب غيرها بالهلاك في أسرع وقت حيث قال: ﴿ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ ﴾ ولم يقتصر على ذكره للعلم بأنه لا يحصل سرعة الهلاك فقال: ﴿ فِيهِ نَارٌ ﴾ ثم لم يقف عند ذلك حتى أخبر باحتراقها لاحتمال أن تكون النار ضعيفة لا تفي باحتراقها لما فيها من الأنهار ورطوبة الأشجار فاحترس عن هذا الاحتمال بقوله:

---

(١) مفاتيح الغيب : ٧ / ٥٠ .

(٢) البلاغة العربية – عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني :٢ / ٩٢– الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت– الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ– ١٩٩٦ م.

﴿ فَٱحۡتَرَقَتۡ ﴾ فهذا أحسن استقصاء وقع في كلام وأتمه وأكمله[١]، وكان هذا الختام آخر استقصاء صارت به الجنّة البديعة المثمرة رماداً، كذلك حالُ من يُتْبِعُ صدَقته بالمنّ والأذى، ما أروع هذا التمثيل وأتقَنَهُ، وأكْثَرَه تَتبُّعاً واستقصاءً للجزئيات حتى لا مزيد عليها[٢].

ثم يُعَرِّضُ القرآن الكريم بغباوة صاحب هذه الحالة وقبح صنيعه، وسوء فهمه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴾، كما أنها تعد من قبيل الحث والإرشاد لم تفكر وتدبر وعقل تلك المثل التي ضربت في هذا السياق القرآني المعجز، أي "بين لكم الآيات الدالة على حقائق الأمور وغاياتها وفوائدها وغوائلها، مثل هذا البيان البارز في أبهى معارض التمثيل لعلكم تتفكرون في العواقب فتضعون نفقاتكم في المواضع التي يرضاها مع الإخلاص وقصد تثبيت النفس حتى لا يستحقها الطيش والإعجاب، فيدفعها إلى المن والأذى"[٣]، ولا شك أنك" ترى عناصر الصورة كلها متآزرة في بيان الحسرة، فترى البناء يوجهك إلى صورة هذه الحالة التي يكون عليها المرائي، فهو يلغي ذكر المرائي، ويتوجه إلى ذكر حالة يوم القيامة، فلا حاجة لأن يذكر المرائي الآن، ولكم التوجه إلى ذكر حاله، وإبراز صورته" [٤]. كما أن هذه الصورة بعناصرها المتآزرة ، وبنائها المحكم ، وما حوته من قيود وتفصيلات" لا تركز البيان على الأعمال بقد ما تركز على الموقف النفسي الناشئ من ضياعها، في وقت يكون صاحبها شديد الحاجة إليها، فهي أشبه بقوله: ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ

(١) الإتقان في علوم القرآن – للسيوطي : ٣ / ٢٥٢ .
(٢) البلاغة العربية – عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة :٢ / ٩٢
(٣) ينظر: تفسير القرآن الحكيم : ٣ / ٥٩ ، ٦٠ .
(٤) أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم : ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً ﴾[1]، من حيث الاهتمام بإبراز الاحتياج".[2]، فالتشبيه مهتم ببيان ضياع هذه الأعمال في وقت الحاجة الماسة إليها، ومن هنا كان وصف الجنة بما وصفت به أدخل في الغرض، لأنه يعني ترقب جزاء هذه الأعمال الكثيرة المتنوعة، وكل وصف في الجنة يزيدها خصوبة وعطاء يعود على الخاتمة بمزيد من الحسرة والشعور بالخسران[3] .

وقد ذكر أستاذنا الدكتور/ إبراهيم الهدهد صورا من التناسب بين تلك الصور الأربع ترجع بها إلى مفهوم التماسك النصي، والتلاؤم المعنوي بينها جميعا، حيث جعل مدار الصور الأربع حول عنصر الإنبات، وبيان ما يصلح له من أنواع التربة، فهو السلك الذي انتظمت فيه تلك هذه الصور الأربعة، وأن هذا يقابله عنصر اليقين، وتأثير المواعظ في قلوب المؤمنين، بخلاف الصفوان الذي لا يقبل ماء ولا ينبت زرعا، كما أن أداة التشبيه ﴿ كَمَثَلِ ﴾ تدور في الصور دورانا متشابها حتى صار كأنه تشبيه واحد، ومدي ارتباط كل تشبيه بسياقه، وتناوله لمعناه ومراده، وتناسبه مع سابقه ولاحقه، كأنها جميعا لحمة واحدة جاءت كبيان عام لكل الناس في اليقين بالقدرة بعد البيان الخاص على اليقين الذي ذكر في آيات الإحياء في قصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وقصة طلب بيان كيفية إحياء الموتى من الخليل إبراهيم –على نبينا وعليه أفضل الصلاة والتسليم–، كما أن المشبه به في تلك الصور تنوع لتنوع المشبه فكان التشبيه الأول﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ ﴾ تصويرا لمضاعفة النفقة، وجاء نظيره ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ ﴾مصورا لحال المنفق، وجاء بناء التشبيه في الصورتين مصورا لتلك الأغراض، وجاء التشبيهان الآخران مصوران لحال المرائي

(١) سورة النور : بعض آية : ٣٩ .

(٢) التصوير البياني : ١٥٧ .

(٣) السابق : ١٥٨.

وتنوع المشبه به فيهما لتنوع الظرفين في الدنيا والآخرة [١].

وعلى كلٍ فتلك صور تشبيهية متعددة متتابعة تدور كلها حول معنى واحد، أو حول فكرة واحدة، وهو داع إلى التماسك ، والتلاؤم والتناسب بين الجزئيات المتعددة، وهي صورة كاشفة لمعنى الإيمان بالغيب وما يحققه من معان عقدية سلبا وإيجابا، ومع قلة وجود تلك الصورة البيانية التشبيهية في القرآن الكريم إلا أنها حازت كل صور الفضل في التعبير، حيث إنها اشتملت على صفات القوم المتعددة، وأحوالهم المتنوعة في صورة التشبيه المتتابع، والتي ترجع إلى مشبه واحد وهو المنافق أو الكافر، أو هما معا لكون كل منهم منكرا لوجود الله تعالى ومن ثم هو غير مؤمن بالغيب وهم المعنيون بقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾[٢]، أي فماهم بمؤمنين بالله ولا هم مؤمنون باليوم الآخر، وهكذا تتباعد الصور التشبيهية في مواطنها، وتختلف مقاماتها، وتتنوع أهدافها، إلا أنها تتشابك وتتلاحم حين نعود بها إلى غرضها الأصيل، ومقصدها الأسمى، فيظهر التناسب، وينبئ التماسك النصي القاسم على قاعدة المعنى الأم، أو أحد صوره المبثوثة والمنتشرة في ثنايا تشبيهات السورة القرآنية الواحدة ، وإنما جاء هذا المعنى في صور التشبيه المتتابعة للمبالغة في طرفي التشبيه فكأن الترهيب وصل للمشبه بطريقين مختلفين، وعلمان خير من علم واحد[٣].

---

(١) ينظر : أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم : ٢٦٦ ، ٢٦٧- بتصرف ظاهر .

(٢) سورة البقرة: آية : ٨ .

(٣) هذا مثل معناه: لأن تضيف على علمك الأول علماً حادثا خير من اكتفائك بمعرفتك. وأصله رجلاً وابنه سلكا طريقا، فقال الرجل يا بني: سل لنا عن الطريق: فقال الولد: إني به عالم، فقال الرجل: يا بني: "علمان خير من علم واحد" فصارت مثلاً. [ينظر: مجمع الأمثال للميداني: ٢٥٢/٢ تحقق محمد محي الدين عبد الحميد ط : مصطفى البابي الحلبي ، مصر} .

المبحث الثاني

تشبيهات الإنفاق وعلاقتها بتشبيهات السورة

تشبيهات السورة الواحدة جزء من مكوناتها التعبيرية تجري في سياقها، وتنطوي مع مقاصدها، وتـــأتي نهجا لأهدافها، ومن ثم فإن غرضا واحدا يجمعها، ومقصدا أصيلا هو غرضها، "ولا شك أن دراسة تشبيهات سورة من سور القرآن، دراسة متأنية، جديرة بأن تكشف الوشيجة الجامعة بين هذه التشبيهات؛ لأنها ما دامت قد جرت في سورة واحدة ، ذات سياق واحد، فلابد أن تكون فيها جامعة تجمعها ، وهذه الجامعة قد تخفى وتدق، ولكنها دقيقة ورائعة، كهذه الطباع الخفية الحية التي تراها تجري في أبناء العشيرة الواحدة، أو كهذه السيما والملامح الدقيقة التي تراها في القوم يرجعون على أب واحد؛ لأن كل رموز السورة، وصيغها، وصورها ترجع إلى ما يشبه أن يكون أبا واحدا، هو المحور الذي تدور حوله"(١). ومعرفة الوشيجة القوية بين تشبيهات سورة البقرة متوقف على معرفة السياق، وبيان المعنى العام الذي تدور حوله السورة الكريمة، وإذا كنا قد وقفنا على هذا المعنى العام من تلك السورة، والمتمثل في قضية الإيمان بالغيب، الظاهر في إحياء الموتى، الواقع في قصة بقرة بني إسرائيل ، فإننا نستطيع أن نجمع جل تشبيهات السورة الكريمة على غرض أصيل، تدور حوله تلك التشبيهات مثلها في ذلك مثل المعنى الأم الذي يربط مكونات السورة بعضها البعض، حيث إن تلك الصور البيانية ترجع إلى ما يشبه أن يكون أبا واحدا هو المحور الذي تدور حوله تلك التشبيهات المتنوعة والمتعددة في السورة الواحدة لاسيما وإن كانت من السور الطوال.

(١) دراسة في البلاغة والشعر: صـــ ٣٥

وإن كنا قد وقفنا على حالتين متقابلتين من صور الإنفاق في السورة الكريمة: حال من أنفق عن يقين، وأخلص في العمل فتضاعف له الأجر ، وحال من أنفق في غير سبيل الله ، واتباع ذلك بالمن والأذي ، فضاع الأجر ، وتلك الأحوال تضع إمام عقولنا صنفين من الناس:

أولها: الذين صحت عقيدتهم وآمنوا بالغيب، وحافظوا على أوامر الله ونواهيه فنالوا بذلك الدرجة في الدنيا، والفوز في الآخرة .

ثانيها : تلك الذين فسدت عقيدتهم لفساد في عقلهم ، أو لقسوة في قلوبهم ، ومن ثم استحقوا المسخ والعقاب في الدنيا والآخرة .

ومن خلال هذا المفهوم العام لتشبيهات آيات الإنفاق في سورة البقرة، يمكن بعد إمعان النظر في تشبيهات السورة الكريمة جملة وتفصيلا عودة كل تشبيهاتها إلى هاتين الحالتين المتقابلتين ثوابا وعقابا .

المطلب الأول

تشبيهات صحيح العقيدة وعلاقتها بالمعنى الأم

رسمت صورة التشبيه في سورة البقرة هذا النموذج الأسمى في صورة تمسكهم بالطاعة، وحرصهم على الانتفاع بما شرعه الله لهم، وتسابقهم في الخير، فكانوا ممن عناهم الله بقوله في صدر سورة البقرة ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾، جزاء وفاقا لتقبلهم شرع الله ، وتمسكهم به، فكانوا خير أمة أخرجت للناس ، ومن هذه الصور التشبيهية الدالة على فضل تلك الأمة المحمدية قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١).

توجيه للخطاب إلى المؤمنين بين الخطابين المختصين بالرسول – ﷺ – لتأييد ما في مضمون الكلامِ من التشريف (٢). وقوله سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ كذلك إشارة إلى مفهوم الآية المتقدمة، ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٣)، فالإشارة ليس إلى ملفوظ به متقدم، إذ لم يتقدم في الجملة السابقة اسم يشار إليه بذلك، لكن تقدم لفظ يهدي، وهو دال على المصدر، وهو الهدى(٤)، فالواو عاطفة

(١) سورة : البقرة : آية : ١٤٣ .
(٢) تفسير أبي السعود : ١ / ١٧١ .
(٣) سورة : البقرة : آية : ١٤٢ .
(٤) البحر المحيط في التفسير: ٢ / ١١ .

لهذه الآية على جملة: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ وما اتصل بها من الجواب بقوله: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ قصد به بيان الحكمة من شرع استقبال بيت المقدس ثم تحويل ذلك إلى شرع استقبال الكعبة، وما بين الجملتين من قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ اعتراض. (١)، ومن هذا المنطلق جاء التشبيه ليكشف لنا تلك السمات التي جمعت في مفهوم الوسطية في مفهوم الآية الكريمة ومنطوقها ليتلاءم مع المقصد الأساس من مقاصد السورة الكريمة .

وقوله:﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾مركب من اسم إشارة يسبقها الكاف الدالة على التشبيه، وقد ذهب الإمام البيضاوي وتبعه الشهاب إلى أن الكاف هنا لمطلق التشبيه والمعنى: كما جعلناكم مهديين إلى الصراط المستقيم، أو جعلنا قبلتكم أفضل القبل،﴿ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أي خياراً، أو عدولاً مزكين بالعلم والعمل. وهو في الأصل اسم للمكان الذي تستوي إليه المساحة من الجوانب، ثم استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط، كالجود بين الإسراف والبخل، والشجاعة بين التهور والجبن، ثم أطلق على المتصف بها، مستوياً فيه الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث كسائر الأسماء التي وصف بها. (٢)، وعلى هذا يكون المشبه في الآية جعلهم خيارا عدولاً مزكين بالعلم والعمل، والمشبه به: كونهم مهديين إلى الصراط المستقيم أو جعل قبلتهم أفضل القبل، والوجه : الخيرية والأفضلية المسببة في كل ، ولا يخفى أنه مفهوم من التشبيه لأنّ معناه

(١) التحرير والتنوير : ٢ / ٢٢

(٢) تفسير البيضاوي: ١ / ١١٠، وحَاشيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي- شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي : ٢/ ٢٤٩ – ط: دار صادر- بيروت.

جعلناكم خياراً مفضلين كقبلتكم وهو يقتضي ذلك بالفحوى، فالإشارة في قوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى مفهوم الآية السابقة لا منطوقها إذ أن المكان المذكور (القبلة) ليس مقصودا في ذاته، فالزمان والمكان لا يمدحان ولا يذمان في ذاتهما وإنما لما يقع فيها من أحداث، وما ينسب إليها من فضائل، ومن ثم كان التشبيه الحاصل في الإشارة لمفهوم الكلام لا لمجرد منطوقه .(١).

والتشبيه بهذه الصورة يعد من المبالغة في المدح لهذه الأمة المحمدية التي فضلت على أمم سابقة بحسن استقبالها هدي السماء، وما تتصف به من سمات تحقق عناصر الخيرية الموضحة في قوله تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾(٢)، والوسطية المنصوص عليها في التشبيه وصف إلهي

(١) وقد أشار فخر الرازي إلى أن الكلام من قبيل التشبيه بدلالة الأداة (الكاف) وجعل المشبه ظاهرا معلوما لا خلاف فيه وهم المؤمنون المعنيون بالخطاب، إلا أنه لم يعين المشبه به فقال: "الكاف في كذلك كاف التشبيه، والمشبه به أي شيء هو؟ وفيه وجوه: أحدها: أنه راجع إلى معنى يهدي، أي كما أنعمنا عليكم بالهداية، كذلك أنعمنا عليكم بأن جعلناكم أمة وسطا، وثانيها: كما هديناكم إلى قبلة هي أوسط القبل،﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ وثالثها: أنه عائد إلى ما تقدم من قوله في حق إبراهيم عليه السلام ،﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ أي فكما اصطفيناه في الدنيا فكذلك جعلناكم أمة وسطا، ورابعها: يحتمل عندي أن يكون التقدير:﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾، فهذه الجهات بعد استوائها في كونها ملكا لله وملكا له، خص بعضها بمزيد التشريف والتكريم بأن جعله قبلة فضلا منه وإحسانا فكذلك العباد كلهم مشتركون في العبودية إلا أنه خص هذه الأمة بمزيد الفضل والعبادة فضلا منه وإحسانا لا وجوبا، وخامسها: أنه قد يذكر ضمير الشيء وإن لم يكن المضمر مذكورا إذا كان المضمر مشهورا معروفا ثم من المشهور المعروف عند كل أحد أنه سبحانه هو القادر على إعزاز من شاء وإذلال من شاء فقوله: وكذلك جعلناكم أي ومثل ذلك الجعل العجيب الذي لا يقدر عليه أحد سواه جعلناكم أمة وسطا ينظر : مفاتيح الغيب : ٤ / ٨٤ .

(٢) سورة : آل عمران : بعض آية : ١١٠ .

لأمة الإسلام، وهذا الوصف إذا ذكر فله سمات مهمة تميز تلك الخيرية أهمها الملازمة الدائمة في كل أحوال المسلم، في السراء والضراء، في السلم والحرب، في معاملة الأحباء ومعاملة البغضاء لا يتغير ذلك، وأن هذه الوسطية تجمع بين أمرين اثنين هما: الخيرية، والأفضلية، فلا يمكن أن يكون الشيء وسطاً إلا إذا كان هو الأفضل والأحسن والأكمل، ومن دلائل هذه الخيرية والعدالة والأفضلية أنه وسط بين المذموم من الطرفين، وهذه سمة الإسلام، وسمة أهله، وسمة تشريعاته، وسمة عقائده، ومن ثم يمثل هذا التشبيه القرآني صورة من صور تلك النفوس التي اطمأنت بالذكر، والقلوب التي طهرت بالطاعة، والعقول التي استنارت بنور القرآن عقيدة ، واستضاءت طريق الهداية عملا، فكان التشبيه عائدا بألفاظه ومعانيه إلى المقصد الأسمى، أو المعنى الأساس التي تدور حوله المعاني القرآنية لسورة البقرة، فكان ثمت تناسب وتعانق بين هذه الآية وآي السورة بصفة عامة،" بأنها تركيز لصورة حية تنصهر فيها كل الأنسجة والخيوط والأفكار التي قام عليها البناء اللغوي للسورة كلها، وهذا شيء يحتاج إلى أن نحكم فهمه من حيث هو فكرة بيانية مستنبطة من أمثال القرآن الكريم، ومن حيث هو لغة بيانية أو أسلوب وطريقة بيانية جرت في الكلام الشريف". (١)

(١) ينظر: من الحصاد القديم – دكتور/ محمد محمد أبو موسى صـ ٣٦٨ .

المطلب الثاني

تشبيهات فاسد العقيدة وعلاقتها بالمعنى الأم

في مقام الحديث عن فاسدي العقيدة أمثال المنافقين الـــذين يبطنـــون خلاف ظاهرهم، أو الكافرين بما أنزل الله من كتاب، وهي صور كاشـــفة حقيقة هؤلاء الذين كابروا وعاندوا، وذلك في مقامات متقاربة وجذور يتولد كل منها من الآخر، تعود إلى الصنف الآخر المذكور في تشبيهات الإنفاق، الذي أجهد نفسه في الدنيا، رئاء وسمعة كالذي ينفق مالـــه رئـــاء النـــاس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر وكان ذلك لسبب فساد لديه أفسد عليه عقيدته ، ولهذا الفساد صور متعددة

الصورة الأولى : فساد العقيدة لفساد العقل

صنف من الناس لم يذعن، كابر وجاهر، عمدت آيات القرآن الكريم إلى إظهار ما هم فيه من ضلال وسوء حال، بعد أن ذكر صور نفاقهم وخسران تجارتهم وضلال سعيهم وذلك في قوله:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١).

صور تشبيهية متعددة تدور كلها حول معنى واحد، أو حول فكـــرة واحدة، وهذا الأسلوب التشبيهي متعدد الصور داع إلى التماسك النصـــي،

(١) سورة البقرة : آيات : ١٦ – ٢٠ .

والتلاؤم والتناسب بين جزئيات المعاني المتعددة، وهي صورة كاشفة لفساد عقيدة طائفة لم تؤمن بالله ولا باليوم الآخر، وكان ظاهرهم خلاف ما يبطنون، وهي صور منفرة للغاية، وهي من التشبيه المتتابع الذي يلتقي حول معنى بعينه، ويبرزه في صورتين متتاليتين أو أكثر، فيزيد المعنى وضوحا وتأكيدا وتفصيلا، ، ومع قلة وجود تلك الصورة البيانية التشبيهية في القرآن الكريم إلا أنها حازت كل صور الفضل في التعبير، حيث إنها اشتملت على صفات القوم المتعددة، وأحوالهم المتنوعة في صورة التشبيه المتتابع، والتي ترجع إلى مشبه واحد وهو المنافق أو الكافر، أو هما معا لكون كل منهم منكرا لوجود الله تعالى ومن ثم هو غير مؤمن بالغيب وهم المعنيون بقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾[(١)]، أي فماهم بمؤمنين بالله ولا هم مؤمنون باليوم الآخر.

والمثل هنا ليس من تشبيه الأشخاص، وإنما حالة بحالة، فليس الشخص في ذاته مرادا، لاسيما هؤلاء الذين ظهر صالحهم، وفسد باطنهم ، فهو مثل للنفاق والكفر، وبلاغة ذلك تكمن في كون الكلام يمكن إلباسه على من تتأتى منه الصفة مع اختلاف الزمان، وتنوع المكان، قال الفراء : "فإنما ضرب المثل للفعل لا لأعيان الرجال، وإنما هو مثل للنفاق"[(٢)]، وتحقق ذلك بتعبيره عن الجمع بلفظ الواحد بقوله﴿ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ ولم يقل الذين، وربما جاءت مؤدّية عن جميع، أراد: مثل المنافقين كمثل قوم كانوا في ظلمة فأوقدوا نارا، فلما أضاءت النار ما حولهم أطفأها الله وتركهم في ظلمات لا يبصرون."[(٣)]

---

(١) سورة البقرة: آية : ٨ .

(٢) معاني القرآن – أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء : صـ ١٥– حققه: أحمد يوسف النجاتي، وآخرون – ط: دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر–:الأولى.

(٣) تأويل مشكل القرآن أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة :صـ ٢١٣ – المحقق: إبراهيم شمس الدين– الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

ويمكن حمل الكلام على حذف المضاف " كأنه قال: مثلهم كمثل أتباع الذي أستوقد ناراً ثم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه""[١].

فالظلمة الأولى التي كانوا فيها: الكفر، واستيقادهم النار قولهم: لا إله إلّا الله، وإن محمدا رسول الله، فلما أضاءت لهم ما حولهم واهتدوا وآمنوا: خلوا إلى شياطينهم، فسلبهم نور الإيمان، وتركهم في ظلمات الكفر.

ويمكن حمل الصورة الأولى على بيان حال الكافر، وما بعدها لبيان حال المنافق، بطريق اللف والنشر المرتب، وحقيقة ذلك تكمن في نوع الكفر الذي يبطنه المنافق نوع خاص يتقلب فيه قلبه بالشك والتردد، وأن هذا الاضطراب الذي نشاهده على حركاته الظاهرة في أقواله وأعماله إنما هو صورة الاضطراب النفسي الذي يحس به هو في دخيلته بخلاف النوع الأول، وهو كفر المجاهرين، فهو طبيعة واحدة مصممة، حسبما تشهد به وحدة آثاره،.. ونحسبه مع ذلك أقرب لأسلوب القرآن وأليق بجزالته، فإن لم يكنه فليكن أحد الوجوه التي يحتملها القرآن"[٢].

والذي يجعل هذا الرأي أقرب لأسلوب القرآن الكريم، وأليق لجزالته، وألصق لمفهوم التماسك النصي في الأسلوب هو "أن عرض القرآن لقصة الكافرين كان موجزاً إذ لم يتعد الآيتين أما عرضه لقصة المنافقين فقد كان مفصلاً إذا ما قيس بقصة الكافرين، وهذان المثلان أولهما موجز بالقياس إلى ثانيهما، وهذا يمكن، الاستئناس به بل التمسك به عندما

(١) النكت في القرآن الكريم (في معاني القرآن الكريم وإعرابه)- علي بن فَضَّال المُجَاشِعِي القيرواني :صـ ١١٤- دراسة وتحقيق: د. عبد الله عبد القادر الطويل- ط : دار الكتب العلمية - بيروت: الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.

(٢) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم : محمد بن عبد الله دراز : ٢٠٣ - اعتنى به : أحمد مصطفى فضلية- قدم له : أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني- الناشر : دار القلم للنشر والتوزيع - ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

يقال إن المثل الأول وارد لبيان حال الكافرين، وأياً كان الخلاف فإن هـذا لا يؤثر على جوهر الموضوع. "[١].

وقد ردت دراسة معاصرة هذا الرأي بقوله :" ولا يصلح أن يكون أول المثلين للكافرين؛ لأن مبني المثل على أنهم استضاءوا بالإيمان كما استضاء هذا المستوقد بالنار، والكافرين لم يحدث منهم شيء من هذا – كما أخبر ربنا سبحانه :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [٢].

وإن كنت أرى أن ما ذهب إليه غيره يمكن صلاح حمله عليه؛ لأنهم وإن لم يحدث منهم الاستضاءة المعنوية (الإيمان)، إلا أنه بلغهم دعوته، وسمعوا كلام ربهم، وهدي نبيهم الذي أرسل إليهم – كما أخبر ربنا ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾"[٣]، والخطاب ليس لمن آمن خاصة، وإنما لكل من يتأتى منه الخطاب إلى يوم القيامة سواء آمن أو لم يؤمن، فالنبي– ﷺ– أضاء لهم الطريق، فمنهم من استضاء ووصل، ومنهم من استضاء وما وصل لفساد في عقله، وقساوة في قلبه، وخلل بيِّن في تفكيره، أو إتباع لهوى فاسد أعاقه من الوصول مع وجود سبله، فالتشبيهات جميعها صالحة لكل موصوف بذلك. والله أعلم.

وقد ذهب الزمخشري إلى أن التشبيه اللاحق أدل على فرط الحيرة ، وأنها فيها أشد بقوله: فان قلت: أى التمثيلين أبلغ؟ قلت: الثاني، لأنه أدل

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د :عبد العظيم إبراهيم المطعني: ٢/ ٣٣١ – الناشر: مكتبة وهبة– الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م.

(٢) سورة : البقرة : آية : ٦، وينظر: أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم – د/ إبراهيم صلاح الهدهد : صـ ٢٢٣ ، ط الإيمان –الأولى ١٤٣٤هـ ٢٠١٣م.

(٣) سورة المائدة : بعض آية : ١٥ .

على فرط الحيرة وشدّة الأمر وفظاعته، ولذلك أُخر، وهم يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ."[١]، وتبعه في ذلك شيخنا دكتور/ محمد أبو موسى بقوله: والمثل الثاني في سورة البقرة أبلغ من المثل الأول – كما قال الزمخشري – ولا حرج علينا حين نقول : إن في القرآن بليغ وأبلغ ، لأن البليغ قد بلغ حد الإعجاز... والمهم أننا نرى في المثل الثاني مزيدا من التنوع في العناصر والأحداث والمخاوف والأهوال، وترى المثل أفسح مدى من المثل الأول"[٢]، " والحق أن كلا من التشبيهين أتي لإبراز جوانب لا ينهض بها التشبيه الثاني، وأن الترقي في وصف الحيرة دليل على ترقي المنافقين في ضلالهم ، لأن بلاغة القرآن كلها على حد واحد"[٣]

ومما هو قرين تلك الصور في العرض والتوضيح لصفات هؤلاء الذين غابت عقولهم وأنكروا ما هو معلوم بالضرورة ، وكابروا وعاندوا ما نزل من السماء ، قوله تعالى في شأن الكافرين:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [٤].

لما ذكر تعالى أن هؤلاء الكفار، إذا أمروا بإتباع ما أنزل الله، أعرضوا عن ذلك ورجعوا إلى ما ألفوه من إتباع الباطل، ولم يتدبروا ما يقال لهم، وصموا عن سماع الحق، وخرسوا عن النطق به، وعموا عن

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل:١ / ٨١ .

(٢) ينظر: دراسة في البلاغة والشعر: ٥٠ ، والتصوير البياني : ١٤٤ ، ١٤٥

(٣) أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم : صـــ ٢٢٢

(٤) سورة البقرة : آية : ١٧٠، ١٧١ .

إبصار النور الساطع النبوي. ذكر هذا التشبيه العجيب في هذه الآية منبها على حالة الكافر في تقليده أباه ومحقرا نفسه، إذ صار هو في رتبة البهيمة، أو في رتبة داعيها، على الخلاف الذي سيأتي في هذا التشبيه [١]، والمثل مضروب بتشبيه الكافر بالناعق. ومنهم من قال: هو مضروب بتشبيه الكافر بالمنعوق به، ومنهم من قال: هو مضروب بتشبيه داعي والكافر بالناعق، ومنهم من قال: هو مضروب بتشبيه الداعي والكافر بالناعق والمنعوق به. [٢] ، وقد ذكر سيبويه فائدة هذا التشبيه عند حديثه عن استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى بقوله: "وإنما شبهوا بالمنعوق به. وإنما المعنى: مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذى لا يسمع. ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى".[٣].

وبمقابلة الطرفين نجد أن الآية قد بنيت على الإيجاز الدقيق، والتعبير المحكم، والدلالات المعبرة " فقد أراد الله تعالى تشبيه شيئين بشيئين: الداعي والكفار بالراعي والغنم، فاختصر، ولكنه اكتفى بذكر الكفار من المشبه ، والراعي من المشبه به، " فدل ما أبقى على ما ألقى، وهذا معنى كلام سيبويه"[٤]. وإنما حسن الحذف في طرفي التشبيه –هنا – تأدبا مع النبي ﷺ وتكريما له بعدم ذكر اسمه في موطن ذم الكفار،

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي :٢/ ١٠٤– المحقق: صدقي محمد جميل– الناشر: دار الفكر –بيروت– الطبعة: ١٤٢٠ هـ.

(٢) فيكون التقدير: ومثل الذين كفروا في قلة فهمهم وعقلهم، كمثل الرعاة يكلمون البهم التي لا تعقل. وقيل: يكون التقدير: ومثل الذين كفروا في دعائهم آلهتهم التي لا تفقه دعاءهم، كمثل الناعق بغنمه، فلا ينتفع من نعيقه بشيء غير أنه في عناء ونداء، وكذلك الكافر ليس له من دعائه وعبادته إلا العناء [البحر المحيط: ٢/ ١٠٥]

(٣) الكتاب :عمرو بن عثمان بن قنبر (سيبويه): ١/٢١٢– المحقق: عبد السلام محمد هارون– الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة– الثالثة، ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٨ م.

(٤) إعراب القرآن المنسوب للزجاج : ١ / ٤٧ ، تحقيق ابراهيم الابياري – طبعة دار الكتاب – لبنان – بيروت– الثالثة : ١٩٨٦م .

وتشبيههم بما لا يعقل، وعلى هذا التفسير تكون الآية من قبيل التشبيه المتعدد، أو المتتابع الذي بني على الاحتباك الدقيق، حيث حذف من كل طرف بما يدل عليه بذكر مقابله في الطرف الآخر، فبناء الآية على هذا الأسلوب أعطى للكلام دقة، وللتعبير لطافة، زيادة على ما في التعبير بالمضارع ﴿يَنْعِقُ﴾ استحضار تلك الصورة الساخرة لهؤلاء المتصامين عن الحق ، المتعامين عن النور، كي تبقى صورة متجددة زاجرة لكل من سلك هذا الطريق، ولم يرد هذا الفعل في القرآن إلا مرة واحدة مع وجود مواطن أخرى مشابهة لهذا الموضع الذي يدعى فيه الكفار إلى الإيمان ولا يستجيبون، وربما كان ذلك لأن المقام هنا يستدعي استعمال مادن (نعق) بذاتها إذ لا يغني غناءها (يصوت أو ينادي أو يصيح)؛ لأن صورة الكفار هنا هي صورة البهائم السائمة الهائمة في صحراء واسعة، فهي تحتاج من راعيها إلى أن يرفع صوته بالنعيق ليناديها، ومن معاني النعيق التتابع في التصويت على البهائم للزجر(١)، وأنت تخال بهذا الفعل رسول الله ﷺ يعلو صياحه لهفة عليهم ، وحنوا وعطفا أملا في دخولهم الدين.(٢)

فمن يتأمل مخارج حروف تلك المادة، وصفاتها، يجد أنها تساعد على انطلاق الصوت عاليا مدويا " فالنون: حرف أنفي مجهور كلي، والعين حرف حلقي احتكاكي مجهور والقاف: لهوي انفجاري شديد (٣)، وتلك المخارج مجتمعة تناسب التعبير عن ارتفاع الصوت بالفعل﴿يَنْعِقُ﴾، كما يفعل الراعي بالغنم .

---

(١) من بلاغة الفرائد الفذة في القرآن الكريم (المضارع نموذجا) د/ كمال عبد العزيز إبراهيم، صـ ٩،١٠، ط: الدار الثقافية للنشر،الأولى:١٤٣١هـ ، ٢٠١٠م.

(٢) ينظر: الاحتباك في الذكر الحكيم (مواقعه وأسراره) د/ إبراهيم صلاح الهدهد: ١٧١،١٧٢ — مكتبة الجامعة الأزهرية، والاحتباك في النظم القرآني– د/ محمود عبدالله صيام: ٦٢ –٦٣، الأولى : ١٤٢٠هـ ، ٢٠٠٠م.

(٣) الأصوات العربية – د/ كمال بشر: ١٣٦، ط:مكتبة الشباب القاهرة ١٩٨٧م.

وعلى كلٍ فإن تعانق تلك الصورة مع ما سبقها في بداية السورة في عرض صفات الكافرين أو المنافقين، من صور التماسك، والتعانق بين تشبيهات السورة الكريمة بصفة عامة، وتشبيهات آيات الإنفاق بصفة خاصة، لاسيما النوع الثاني منها.

بيد أن هذه الصورة تعرض نموذجا آخر من نماذج الحيرة والقلق، وهو عدم السماع لداعي الخير، والهادي إلى طريق الرشد ،وعدم النفع مما يرجى منه النفع عادة – كحال من ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، وقد جاءت تلك الصور المتتابعة متنوعة في العرض والتركيب، وإن كان يجمعهم طرف واحد، وهو المشبه (الكافر)، الذي غاب عقله، وعمي قلبه وبصره، فلم يستطع إلى مراد ربه منه، وتتشابه تلك الصور التشبيهية المتتابعة مع ما سبقها في افتتاح تلك السورة ، ويتناسب جو الآية مع السياق العام للسورة كلها ، فتلاءم السياق المقالي مع المقام الحالي، وهو الحديث عن حال طائفة الكفار الذين لم ينتفعوا بما سمعوه، ولم يستضيؤا بما أنزل على محمد ﷺ، ورفضهم هديهﷺ فكانوا كالأنعام بل هم أضل، فالصورة التشبيهية بُنِيَت على تشبيه حال بحال، وهي حال الكفار عند سماعهم دعوة النبي محمد ﷺ وإعراضهم عنها، بحال الغنم تسمع صوت من يزجرهم، ويصيح فيهم دون معرفة ما هو مطلوب منهم فيسرحون دون هداية أو إرشاد، وتلك الصورة المكررة في سورة البقرة تحمل المعاني ما يجعلها فريدة في بابها، بليغة في سياقها، " فإنه قصد تشبيه المدعوّ بالغنم التى يُنعق بها، وداعيهم بالناعق بالغنم، فأجمل وراعى مقابلة المعنى دون مقابلة اللفظ؛ وبسط الكلام" (١)، وتكون

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز – مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى :٤/ ٤٨٣– المحقق: محمد علي النجار– الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

المفارقة التصويرية هنا أنه بالرغم من هذا الصوت العالي ، فإن الكفار لا يفهمون منه إلا كما تفهم الماشية من الدوى ، وذلك لأنهم ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[1]

ولا يفوتني قبل أن أنتقل إلى صورة أخرى من صور فساد القوم أن أقف على بلاغة هذا التكرار اللفظي لصورة تابعة لتركيب تشبيهي متبوع، وهو قوله تعالى تذييلا لتلك الصورة :﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾، وما بينها من تناسب مقالا ومقاما لما جاء في التشبيه الأول في بداية السورة تعقيبا: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ ــ ولست بصدد الحديث عن الصورة التشبيهية الموجودة في الآيتين –فقد أغنانا ما سبق – وإنما نقف على اللطيفة القرآنية في هذا التكرار مع اختلاف الفاصلة القرآنية ، والتي جاءت كل منها كاشفة على سياق حالي للمشبه في الطرفين .

ففي التشبيه الأول من السورة وهو نفي الرجوع في قوله ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ لأن مقام الحديث فيها كان على طائفة عرفوا الحق وأنكروه، وبالغوا في إنكاره قلبا وقالبا، حتى وصلوا في ذلك إلى درجة شديدة من النفاق فاستوقدوا النار، وما استضاؤا بها فتحيرت عقولهم وضل طريقهم وما عادوا يستطيعون الرجوع بعد ما أطبقت عليهم ظلمة الغي والطغيان، أما في التشبيه الآخر في قوله :﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ وعدم التعقل هنا معناه عدم الفهم لما يلقى عليهم من كلام ، فالرسول ﷺ يدعوهم، ويبالغ في دعائهم بما توحيه المفردة الفريدة في جانب المشبه به ﴿يَنْعِقُ﴾ من شدة الصياح مع تكراره وتجدده ، وهم يقابلون ذلك إعراضا وصدا، ولا يعقلها إلا العالمون، وتكرير الصور–على

(١) من بلاغة الفرائد الفذة في القرآن الكريم (المضارع نموذجا) : صـ ١٠

حد تعبير شيخنا دكتور صبَّاح دراز: "حين يحمى المقام، وتتداخل المشاعر، ويحتد الأسلوب، ويتوهج الانفعال وينتشر، ويترقى الحدث صعدا، عالي النبرة، جهير النغمة، شديد الجرس، ولذا يتكرر التعبير؛ ليوزع الانفعال فيه، بحيث لو حذف لكان التعبير مبتورا، كصيحة لم تتم، أو جملة لم تكتمل، أو استصراخ من مستغيث يتكرر، أو آهة متألم تتوالى، أو لفظة حنان، وآلة متدله تذوب بها حبات القلوب"(١)، ومن هنا ظهرت علاقة هذه الصورة البيانية بسياق السورة القرآنية والعودة بها إلى المعنى الأم، والمقصد الأسمى للسورة الكريمة، وهو وجوب الإيمان بالله المستلزم منه الإيمان بكل ما غاب عنه، والمتمثل في قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾، فدارت الصور مع تتابعها حول مقصد واحد.

الصورة الثانية : فساد العقيدة لقسوة القلوب

تلك حال القلوب التي ضلت طريقها، وكفرت بأنعم ربها، فما ذاقت طعم الإيمان، ولا تمتعت بحلاوة اليقين، ومن ثم كانوا كالحجارة أو أشد قسوة، وذلك بين ظاهر في تشبيهات القرآن الكريم الناطقة بالحق، الكاشفة عن زيف معتقدهم، وسوء تلقيهم آيات ربهم ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(٢)

صورة أخرى من صور التشبيه المتعدد أو المتتابع جاءت في أسلوب الترقي في الذم، والمبالغة في المسخ والمقت لمجافاتهم شرائع الله ، وتمسكهم بهديه، والإذعان لنواهيه وأوامره ، فالعقيدة الصحيحة تحتاج إلى

(١) البلاغة القرآنية عند الخطابي – دكتور/ صبّاح عبيد دراز : ٨٩ – مطبعة الأمانة – الأولى : ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦ م.

(٢) سورة البقرة : آية : ٧٤.

قلوب لينة، وإن لم تكن سليمة، فسلامتها آتية مع ما يقع فيها من ذكر وما تتشربه من تشريعات، أما القاسية قلوبهم، فهم كالأرض القيعان التي لا يثبت فيها الماء، أو الأرض الجدباء التي لا زرع فيها ولا ماء، فلا يرجى منها نفع، ولا يؤمن فيها من هلاك ، والذي يستوقفني– هنا–أمر جلل، وهو أن البعد عن مراد الحق لا يكون بالقلب فحسب، بل يميت فيه حركة الحياة الحقيقة المتمثلة في الإيمان بالله ، وإلحاق الإنسان بالجماد تشبيها تضعه في درجة متدنية، سابلة منه عنصري الحركة والنفع، والآية تقدم لنا هؤلاء الذين رفضوا إرسال السماء ، وكابروا وعاندوا، وكفروا، وضلوا، فلم يرجى منهم نفع، ولم يتولد منهم فائدة، فهو تشبيه قلوب أهل الكفر وهم من اليهود بالحجارة بجامع القسوة والصلابة، وأنه لا ينفذ إليها شيء من الخير والحق، ومجيء هذا التشبيه متتابعا ليصور فظاظة الطبع، وغلظ القلب ومجافاته للحق، وبين أن هذه القلوب أشد قسوة من القساوة، وأبعد صلابة من الصلابة، هكذا ذما وتنفيرا، والتشبيه هنا مدفوع بالإيحاء العميق الذي يهدف إلى تقبيح صورة اليهود، وتشويه عقولهم التي لا تستجيب لجلال الحق ونوره الساطع ، واستعمال القسوة للقلوب من المجاز إذ القسوة موضوعة أصلا للأجسام الصلبة ونحوها ، واستعمالها للقلب استعارة ، فالقلوب محل لتلك المعاني الداخلية ، وبه صلاح الأمر وفساده، وفي التشبيه مسخ لهذه العقول التي لا تفقه في صورة الجماد لعدم قبولها الخبر وانفعالها بنور الهدى، ولأن الحجارة لا تعي ولا تتأثر، كان إلحاقهم بها إشارة إلى إخراجهم من وادي الإنسانية إلى وادي الجماد، وكأنهم غير جديرين بهذه الإنسانية، بل يستحقون مرتبة دون مرتبة الجماد؛ لأن قلوبهم أشد قسوة من الحجارة، وفي هذا تهكم لاذع، وسخرية مريرة في نبرة حادة وغضب متصاعد(١).

(١) التشبيه المتتابع في القرآن الكريم : صـــ ٤٢ ــ وينظر: من بلاغة التشبيه الساخر في القرآن الكريم دراسة تنظيرية تطبيقية د/ مدحت حسيني ليمونة – بحث منشور في مجلة كلية التربية جامعة كفر الشيخ: ٣٨٠ العدد الرابع ٢٠١٤م

وعدم اكتفاء الصورة بالتشبيه المفرد بل أخذ إلى الترقي في عرضها إشارة إلى أن تلك القلوب القاسية الجامدة لم يعد يؤثر فيها حكمة، أو يقع عليها موعظة، ولم تعد صالحة لنفع نفسها، أو إصدار النفع لغيرها، وكأن الصورة ناطقة بذمهم ومقتهم إنكارا عليهم ، ومن ثم فإن العطف بـــ " ثم" في قوله : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ لم تكن للعطف مع التراخي، وإنما جاءت لغرض الاستبعاد: أي استبعاد أن تقسو القلوب بعد ذلك ، وقد جاء أفعل التفضيل على غير صورته ، وهو أن الفعل(قسا) ثلاثي والفعل الثلاثي لا يحتاج إلى ما يصوغه للتفضيل، ولكنه لما أراد المبالغة في إظهار تلك القساوة، وزيادة في التقريع والذم، "ويجعل القرآن في الحجارة المثال الملموس لقسوة قلوب اليهود ويبعدها عن أن تلين لجلال الحقّ وقوة الصدق، ألا ترى أنّ القسوة عند ما تخطر بالذّهن تخطر إلى جوارها الحجارة الجاسية القاسية"(١).

ثم تأتي الخاتمة مفصلة الفرق بين تلك القلوب القاسية التي فسدت وضلت السبيل، وأنكرت شرع السماء، وبين تلك الحجارة التي يرجى منها النفع ، وينتظر فيها الفائدة بقوله: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ، في تفصيل وتمييز وتنوع في النفع والإفادة، وننظر إلى قوله : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ تقريع وتنكيل بهم، وإشارة إلى ما كان ينبغي عليهم، بدلا من الجحود والجمود والنكران، وقساوة القلب والخسران، وهو من قوله سبحانه :﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى

(١) من بلاغة القرآن د/أحمد أحمد بدوي:١٩٢.طبعة: دار نهضة مصر للطباعة– القاهرة:٢٠٠٥ م.

قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[1] ومن قوله سبحانه: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾[2]، فضلا عن أنها لا تكون منبعا للخير في حياة الناس، لن تكون مؤذنة بحركة الخير وانتشارها، كما تكون الحجارة مؤذنة بمرور الماء، والماء هو أصل الحياة في مجالاتها الحسية والمعنوية[3].

وأول ما يسترعى النظر في خصائص تلك الصورة التشبيهية هو أنها قامت على عنصر تشبيهي استمد من الطبيعة "وذلك سر خلوده، فهو باق ما بقيت الطبيعة، وسر عمومه للناس جميعا"[4]، وهذا النهج القرآني يجعل الصورة الفنية كاملة العناصر في نفوس المخاطبين، وأدعى إلى التأثير.

ولك أن تلحظ هذا التشابه بين صورتي الكافر في بدايات السورة الكريمة في قول ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ وقوله :﴿ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ من وجود أو التي للتنويع والتتابع في الصور، تحقيقا للغرض المسوق له الكلام ، ومعانيها في الموضعين متعددة، وجميعها يسوق إلى التشبيه: [5].

---

(١) سورة التوبة : آية : ٢٤، ٢٥ .

(٢) سورة الحشر : بعض آية : ٢١ .

(٣) التصوير البياني – د/ محمد أبو موسى : ٨٣ .

(٤) من بلاغة القرآن –د/ أحمد بدوي : ١٥١ .

(٥) " أو" لها معان متعددة ، أوّلها: أن تكون أَوْ هاهنا للإباحة كقولهم: جالس الحسن أو ابن سيرين؛، ولم يريدوا الشك؛ فيكون معنى الآية على هذا: إن قلوب هؤلاء قاسية متجافية عن الرّشد والخير، فإن شبّهتم قسوتها بالحجارة أصبتم، وإن شبّهتموها بما هو أشدّ أصبتم، وإن شبهتموها بالجميع فكذلك، وعلى هذا يتأوّل قوله:﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾؛ لأن أَوْ لم يرد بها الشكّ بل على أنكم إن شبهتموهم بالذي استوقد نارا فجائز، وإن شبهتموهم بأصحاب الصيّب فجائز، وإن شبهتموهم بالجميع فكذلك، وثانيها: أن تكون أَوْ دخلت للتفصيل والتمييز، ويكون المعنى: إن قلوبهم قست، فبعضها ما هو كالحجارة في القسوة، وبعضها ما هو أشد قسوة منها..، وقد يحتمل قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾هذا الوجه أيضا، ويكون المعنى=

يشبه ذلك القلب مثل حال من يبطل صدقاته بالمن والأذى المشبه بالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فحال من قست قلوبهم كالحجارة كحال الصفوان عليه تراب أصابه وابل فتركه صلدا، كما أن صور المنافق أو الكافر تتلاحم مع صورة الصفوان من وجوه:

أولا : أن ظاهر أعمال المنفق المنان أو المؤذي، أو المنافق ظاهرها يرجى منه النفع، وكذا صورة الحجر الأملس وقد كساه التراب ويعلوه ينتظر منه نفعا ظاهرا.

ثانيًا : أن المنافق أو المنان والمؤذي يتستر بإنفاقه هذا عما هو أصل في عقيدته الفاسدة، حتى لا يطلع عليها أحد، وكذا الصفوان يظنه الرائي ترابا صالحا نافعا لنفسه منتفعا به غيره.

ثالثًا : المنافق أو المنان والمؤذي سرعان ما تظهر سوء طويته حين يوضع في اختبار عقدي قوي، لا يقوى معه على المغالطة، فهو كالأرزة صماء معتدلة، يقصمها الله إذا شاء، كذلك الحجر الأملس الذي عليه تراب، سرعان ما يتضح أمره، وتنكشف حقيقته، ويعلم أنه لا ينفع عليه زرع، ولا يثبت على سطحه ماء، فلا هو نافع لنفسه، ولا هو مقدم النفع لغيره .

وهكذا تتباعد الصور التشبيهية في مواطنها، وتختلف مقاماتها، وتتنوع أهدافها، إلا أنها تتشابك وتتلاحم حين نعود بها إلى غرضها الأصيل، ومقصدها الأسمى، فيظهر التناسب، وينبئ التماسك النصي القاسم على

= أن بعضهم يشبه الّذي استوقد نارا، وبعضهم يشبه أصحاب الصيب، وثالثها: أن يكون أَوْ دخلت على سبيل الإبهام فيما يرجع إلى المخاطب، وإن كان الله تعالى عالما بذلك غير شاك فيه، لأنه تعالى لم يقصد في إخبارهم عن ذلك إلا التفصيل؛ بل علم سبحانه أن خطابهم بالإجمال أبلغ في مصلحتهم، فأخبر تعالى أنّ قسوة قلوب هؤلاء الذين ذمّهم كالحجارة أو أشد قسوة، والمعنى أنها كانت كأحد هذين لا يخرج عنهما ينظر: أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) – الشريف المرتضى العلوي :ص ٥٥– ت: محمد أبو الفضل إبراهيم– ط: دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي): الأولى، ١٣٧٣ هـ – ١٩٥٤ م.

قاعدة المعنى الأم، أو أحد صوره وهو بيان حال صورة تلك الطائفة التي رفضت شرع ربها غيابا لعقل مع وجود أسباب التفكر، أو قسوة قلب مع إظهار دلائل وبراهين تجذبه إلى الحق جذبا.

الصورة الثالثة : فساد العقيدة لإتباع الهوى

الكفر نوعان: جهليّ ينكِر لأنه لا يعلم. و جحودي تمردي يعرف لكن لا يقبل، يتيقّن لكن لا يعتقد، يصدِّق لكن لا يذعن وجدانُه إذ بحكم صنعته الفطرية يشتغل قلبُه دائما بالإضلال، ويتصور عقلُه دائماً الكفر للتلقين، فلا ينقطع هذا الشغل، ولا يزول ذلك التصور عن عقله، حتى تتمكن فيه المعرفة.(١)، وحين تكون العقول غائبة، والقلوب قاسية تجد النفوس حائرة بين الحق والباطل، وترى أهل الباطل يزعمون أنهم على الحق المبين، فلا عقل يفكر، ولا قلب يخشع، ولا علم ينفع فيضلون بعد هدى، وينكرون بعد عين يقين ما علموه وأتقنوه عنادا، وجحودا وإنكارا، كشأن أهل الكتاب في عهد رسول الله- ﷺ – ومنه قول الحق سبحانه في شأنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾(٢)

فاليهود لخبث طويتهم، وقبح معتقدهم ، ينكرون على أنفسهم علمهم بحقائق الأمور، وتناسب الآي السابقة لتلك الآية الكريمة تنتظم في معان ومفردات تكشف هذا الخبث، في قوله تعالى: ﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ

(١) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز بديع الزمان سعيد النورسي :صـــ ٧٤ – المحقق: إحسان قاسم الصالحي– ط: شركة سوزلر القاهرة– الثالثة، ٢٠٠٢.

(٢) سورة البقرة: آية : ١٤٦ .

عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[1]، فهم يعرفون النبي – ﷺ – بما في كتبهم من البشارة به، ومن نعوته وصفاته، ويعرفون أن ما جاء به في شأن القبلة هو الحق الذي أوحى الله به إليه.. يعرفون كل ذلك معرفة يقين لا شبهة فيه كما يعرفون أبناءهم.. ولكنَّ فريقًا منهم يعاندون فيكتمون الحق الذي يعرفون، ويتوجه الخطاب بعد هذا التقرير والبيان إلى رسول الله ﷺ معلنًا أن الحق هو ما أوحى الله به، فلا محل للارتياب والتردد في إتباعه.. وفي هذا إيحاء بالغ للمؤمنين ليعملوا بما أمر الله ويعرضون عن أباطيل الجاحدين وزورهم وبهتانهم، فهم دائمًا دعاة فتنة وعناصر شر وفساد، والمراد بقوله: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ اليهود والنصارى ، وهو من ذكر العام وإرادة به طائفة معينة من القوم وهم العلماء منهم بدليل وصفهم بأنهم ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾، أي يعرفون صفات النبي محمد ﷺ ويعرفونها حق المعرفة، وإنما عبر باللفظ العام دلالة على أن علماء اليهود علموا العلم ولم ينتفعوا بما تعلموه فضلوا وأضلوا، كما أن الجميع علموا صفات النبي محمد ﷺ واتفقوا عليها، كما جاءت في كتبهم كما ورد في قوله في شأن النبي ﷺ وصحابته الكرام: ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾[2].

(١) سورة البقرة: آية : ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٢) سورة الفتح: آية : ٢٩

والتعبير بالجميع تسجيلا عليهم سوء فعالهم، وقبح معتقدهم؛ لأن "الجمع العظيم الذي علموا شيئا استحال عليهم الاتفاق على كتمانه في العادة"(١)، بيد أن إتباع الهوى عندهم أفسد عليهم عقيدتهم، فتلقوا أمر النبي محمد ﷺ تلقي المعاند المكابر المجاهر، ويكشف التشبيه القرآني تلك الصورة القبيحة لهم، بإظهار المبالغة في عنادهم بقوله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ ﴾ تشبيه في جلاء المعرفة وتحققها فإن معرفة المرء بعلائقه معرفة لا تقبل اللبس، كقول زهير بن أبي سلمى:

فهن ووادي الرس كاليد للفم (٢).

تشبيها لشدة القرب البين، وخص الأبناء لشدة تعلق الآباء بهم فيكون التملي من رؤيتهم كثيرا فتتمكن معرفتهم فمعرفة هذا الحق ثابتة لجميع علمائهم (٣).

وجاز الإضمار في قوله ﴿ يَعۡرِفُونَهُۥ ﴾ للنبي ﷺ وإن لم يجر له ذكر، لأن الكلام يدل عليه، ولا يلتبس على السامع، ومثل هذا الإضمار فيه تفخيم وإشعار بأنه لشهرته وكونه علما معلومًا بغير إعلام، قال الألوسي : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ ﴾ مبتدأ وخبر، والمراد بهم العلماء لأن- العرفان- لهم حقيقة، ولذا وضع المظهر موضع المضمر؛ ولأن-أوتوا- يستعمل فيمن لم يكن له قبول،...وضمير يَعْرِفُونَهُ لرسول الله ﷺ وإن لم

---

(١) مفاتيح الغيب = ٤/ ١١٠ .

(٢) عجز بيت لزهير بن أبي سلمى في ديوانه : ٧٧ – [من بحر الطويل] دار صادر بيروت وتمامه:

بَكَرْنَ بُكُوراً واسْتَحَرْنَ بِسُحْرَةٍ ... فَهُنَّ وَوَادي الرَّسِّ كَاليَدِ لِلْفَمِ

أي لا يجاوزن هذا الوادي، أي لا يخطئنه كما لا تجاوز اليد الفم.[شرح القصائد العشر يحيى بن علي للتبريزي: ١٠٩:إدارة الطباعة المنيرية الثانية : ١٣٥٢ هـ]

(٣) التحرير والتنوير::٢ /٤٠ .

يسبق ذكره؛ لدلالة قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ﴾ عليه، فإن تشبيه معرفته بمعرفة– الأبناء– دليل على أنه المراد، وقيل: المرجع مذكور فيما سبق صريحا بطريق الخطاب، فلا حاجة إلى اعتبار التقديم المعنوي «غاية الأمر» أن يكون هاهنا التفات إلى الغيبة للإيذان بأن المراد ليس معرفتهم له عليه ﷺ من حيث ذاته ونسبه الزاهر، بل من حيث كونه مسطورا في الكتاب منعوتا فيه بالنعوت التي تستلزم إفحامهم(١)، فمعنى قوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ أي يعرفونه بأوصافه كمعرفتهم أبناءهم لا يلتبسون عليهم بغيرهم، قال عبد الله بن سلام: لأنا كنت أشد معرفة برسول الله ﷺ، مني بابني، فقال له عمر: وكيف ذاك يا ابن سلام؟ قال: لأني أشهد أن محمدا رسول الله حقا يقينا، وأنا لا أشهد بذلك على ابني، لأني لا أدري ما أحدث النساء.(٢)

والتعبير بالمعرفة دون العِلْمِ، لكون العلم إحاطة بجميع جزئيات الشيء وكلياته، بخلاف المعرفة على الوقوف على جزئيات الشيء دون كلياته، وفيه تعريض بهم ومبالغة في بيان حالهم من العناد والتكبر، حيث إن قصر فهمهم ناتج عن هوى متبع، وأن حاجز الهوى والعناد حال بينهم وبين الوصول إلى حقيقة الأمر وكنهه، مع وصولهم إليه علما وتعلما ،

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني– شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي :١/٤١١– المحقق: علي عبد الباري عطية– الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت– الأولى، ١٤١٥ هـ.

(٢) ينظر:أنوار التنزيل وأسرار التأويل– ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي : ١/ ١١٢ – ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي– الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت– الأولى – ١٤١٨ هـ، وأسباب نزول القرآن – أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي : ٤٧ ت: كمال بسيوني زغلول ط: دار الكتب العلمية بيروت الأولى،١٤١١ هـ.

"كما أنه عدل عن أن يقال يعلمونه إلى يعرفونه لأن المعرفة تتعلق غالبا بالذوات والأمور المحسوسة"(١).

ثم تأتي ختام الآية مشفوعة بتذييل يوضح عنادهم وإكبارهم ، ويسجل عليهم سوء صنيعهم، وإظهار أن كفرهم بالنبي محمد ﷺ لم يكن جهلا، فيعزر بجهل، بل تكبر وعناد بقوله:﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾، صفعا لهؤلاء المتكبرين المعاندين، وبيانا بأن تكبرهم وعنادهم ومجاهرتهم العداوة للنبي ﷺ لم تكن سوى إتباع لهوى فاسدٍ مُتَّبعٍ، وانظر للتعبير بالفعل المضارع﴿ لَيَكْتُمُونَ ﴾ بدلالتيه اللغوية والبلاغية على التجدد والاستمرار، وما يحتويه من حركة حسية توحي بالمراوغة والمماطلة، جالبة لمفهوم الكذب والبهتان، ووقوع على مما يرغب في نشره وإذاعته ﴿ ٱلْحَقَّ ﴾ ألا لا يجهلا بل هم يعرفونه حقا ، فهو حق في ذاته، وحق في معتقدهم فإنه حق لا جهل فيه بل عناد وحسد وإتباع هوى، ثم تأتي جملة الفاصلة القرآنية ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ عطفا على ما تقدم "من عطف الخاص على العام، وفائدته تخصيص من عاند وكتم بالذم، واستثناء من آمن وأظهر علمه عن حكم الكتمان، فهو تخصيص لبعض الذين أوتوا الكتاب بالعناد في أمر القبلة وفي غيره مما جاء به النبي ﷺ وذم لهم بأنهم يكتمون الحق وهم يعلمونه وهؤلاء معظم الذين أوتوا الكتاب"(٢).

صور أخرى في تسفيه القوم

قوله سبحانه ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ

(١) التحرير والتنوير:٢ /٤٠

(٢) روح المعاني – الألوسي : ١/ ٤١٢ .

يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (١).

صور تشبيهية بديعة ترسم حال القوم من إتباع الهوى، والإعنات والتكبر، فأضلوا كثيرا، وضلوا عن سواء السبيل، وهي إخبار بجهل تلك الطوائف التي قابلت حكم الله وشرعه بالاستكبار والجحود، عنادا وحسدا، كاليهود والنصارى، أم جهلا وبهتانا، كالكفار والمشركين بصورة تشبيهية أخرى من صور الذم والتهكم، وتسفيه عقول وآراء، شملت كل من تلقى شرع الله تعالى بالنكران والعناد، من اليهود والنصارى والكفار على مر الزمان وتتابع الرسل ونزولهم بالحق على أقوامهم، وفي هذا زيادة التأكيد على أنهم جميعا اجتمعوا على فساد المذهب، وقبح الزعم، مع اختلاف المعتقد الفاسد.

"وسورة البقرة هي أكثر سور الذكر الحكيم كشفا لفضائح اليهود، ولا توجد سورة توسعت في فضائحهم كسورة البقرة.(٢)

وهذه الآية تعد تفصيلا لما أجمل، وذكرا لما أضمر في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾(٣)، والمعنى : وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، وهذا التفصيل واقع لزوال الشك، ودفع الريب في مسألة من القائل في هذه الآية، لأن كل طائفة تنكر على الأخرى مذهبها ومعتقدها، وهذه الآية جاءت لزيارة بيان أن المجازفة هؤلاء القوم، وأن رمي

(١) سورة البقرة: آية : ١١٣.

(٢) أسلوب المدح والذم في الذكر الحكيم – دراسة بلاغية – د/ إبراهيم صلاح الهدهد: صـ ٦٧ ، مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع – مكتبة الجامعة الأزهرية.

(٣) سورة البقرة: آية : ١١٣.

المخالف لهم بأنه ضال شنشنة قديمة فيهم فهم يرمون المخالفين بالضلال لمجرد المخالفة، فقديما ما رمت اليهود النصارى بالضلال ورمت النصارى اليهود بمثله فلا تعجبوا من حكم كل فريق منهم بأن المسلمين لا يدخلون الجنة، وفي ذلك إنحاء على أهل الكتاب وتطمين لخواطر المسلمين ودفع الشبهة عن المشركين بأنهم يتخذون من طعن أهل الكتاب في الإسلام حجة لأنفسهم على مناوأته وثباتا على شركهم، روي أن وفد نجران لما قدموا على رسول الله ﷺ أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم، فقالت اليهود: ما أنتم على شيء من الدين وكفروا بعيسى عليه السلام والإنجيل، وقالت النصارى لهم: نحوه وكفروا بموسى ﷺ والتوراة [1].

والتعبير بالشيء في الموضعين بقوله :﴿ عَلَىٰ شَيۡءٖ ﴾ مبالغة عظيمة، لأن المحال شيء ، يقال شيء محال، وكذا المعدوم شيء ويقع عليهما اسم الشيء، ومن ثم فنفي الشيء من قبيل المبالغة في تحقيره أو الحط من شأنه، وإن كان لا يمنع من وجوده ، فنزل الموجود – على حد زعمهم – منزلة العدم تحقيرا، والمعنى على شيء يعتد به اصلا، زيادة على أنهم يؤمنون بالله تعالى ربا، وإنما الخلاف في إيمان كل طائفة بنبيه ، قال فخر الدين الرازي : " فإن قيل: كيف قالوا ذلك، مع أن الفريقين كانا يثبتان الصانع وصفاته وذلك قول فيه فائدة؟ ، قيل في الجواب: إنهم لما ضموا إلى ذلك القول الحسن قولًا باطلًا يحبط ثواب الأول، فكأنهم ما أتوا بذلك الحق، أو أنه يخص هذا العام بالأمور التي اختلفوا فيها، وهي ما يتصل بباب النبوات" [2] ، والحق " أن قولهم هذا كان على سبيل المبالغة، في أن

(١) أسباب النزول – النيسلبوري : صـــ ٣٦ .

(٢) مفاتيح الغيب : ٤ / ٩ .

كل فريق لم يعتد بما الآخر عليه، وأن نفي كل فريق ما عليه الآخر، ليس كما قاله الرازي، بل إن النصارى كانت تعتقد التثليث، وإلى الآن هم على ذلك، فقال لهم اليهود: لستم على شيء من الدين، واليهود تعتقد التجسيم، وفريق منهم يقول: "عزير" ابن الله، فنفى النصارى قولهم وطعنوا فيه.(١)

وجملة : ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ، الواو للحال والكتاب للجنس أي قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب وحق من حمل التوراة والإنجيل وآمن به أن لا يكفر بالباقي لأن كل واحد من الكتابين مصدق للآخر {كذلك} مثل ذلك القول الذي سمعت به {قَالَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ} أي الجهلة الذين لا علم عندهم ولا كتاب كعبدة الأصنام والمعطلة قالوا لأهل كل دين ليسوا على شيء وهذا توبيخ عظيم لهم حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك من لا يعلم. (٢)

وقوله :﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۗ﴾ نفي العلم إثبات للجهل وأسلوب القرآن الكريم بليغ معجز، فنفي العلم هنا أبلغ وأقوى دلالة من ذكر نقيضه؛ لكونه يجعل الصفة مستلزمة فيهم لا تتعداهم، بخلاف الجهل فيمكن إزالته أو محوه إن أقبل على العلم ، فوجه الشبه بيان جهل القائل، ونقض ما أتى به من أخبار، سخرية من قولهم، وردا عليهم معتقدهم قديما ومعاصرا، وليس معنى هذا أن نفي العلم طائفة المشركين نفيا كليا، أو حكما عاما، لأن ذلك واقع في قوله قبل ذلك ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وإنما هو من قبيل نفي الشيء تحقيرا لشأنه، وتقليلا لوجوده،

(١) جواهر الأفكار ومعادن الأسرار المستخرجة من كلام العزيز الجبار –عبد القادر بن أحمد بدران : ٣١٧ ،المحقق: زهير الشاويش ط :المكتب الإسلامي، بيروت – لبنان –: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩١ م

(٢) مفاتيح الغيب : ٤ / ٩ .

وبيانا لدنو منزلته، مع ما ظهر منهم من أقوال جهل، وأفعال من لا يعي ولا يعلم، فكأنه لا وجود له أصلا، وكذا حال علم الطوائف الثلاث: اليهود والنصارى ومشركي العرب، " وهذا استطراد للإنحاء على المشركين فيما قابلوا به الدعوة الإسلامية، أي قالوا للمسلمين مثل مقالة أهل الكتابين بعضهم لبعض وقد حكى القرآن مقالتهم في قوله: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ ﴾(١)

والتشبيه المستفاد من الكاف في قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ ﴾ تشبيه في الادعاء على أنهم ليسوا على شيء والتقدير: مثل ذلك القول الذي قالته اليهود والنصارى قال الذين لا يعلمون، ولهذا يكون لفظ مثل قولهم تأكيدا لما أفاده كاف التشبيه وهو تأكيد يشير إلى أن المشابهة بين قول الذين لا يعلمون وبين قول اليهود والنصارى مشابهة تامة لأنهم لما قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قد كذبوا اليهود والنصارى والمسلمين"(٢)، وإنما كان هذا التشبيه من قبيل الذم والقدح لأهل الكتاب، وسخرية من حالهم، والحط من قدرهم؛ لأنه شبههم بالجهلة الذين ليس لهم كتاب، الذين هم عندهم ضلال، وفي هذا غاية العيب لهم، لتسوية حالهم مع علمهم بحال الجهلة، في القطع في الدين بالباطل، كما سوى حالهم بهم في الحرص على الحياة في الدنيا، ومنهم عبدة الأصنام الذين منهم العرب الذين أخرجوا الرسول من بلده ومنعوه مسجد أبيه، إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، الذي هو الحقيق بهم دونهم، وساق ذلك مساق

(١) سورة الأنعام: آية : ٩١

(٢) التحرير والتنوير : ١ / ٦٧٧ .

جواب سائل، كأنه قال: هذا قول العلماء بالكتاب، فما حال من لا علم له فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ أي: مثل قول الجهلة الذين لا علم عندهم ولا كتاب، كعبدة الأصنام والمعطلة وغيرهم، فعاندوا وضللوا المؤمنين أهل العلم بالكتاب الخاتم، الذي لا كتاب مثله، وضللوا أهل كل دين. "(١)،

وبلاغة تلك الصورة البيانية ، ودخولها حيز الإعجاز يكمن في شمول التعبير، والإحاطة بكل تقسيمات الأمر مع وجازة العبارة بذكر كل هؤلاء الذين استقبلوا هدي السماء بتكبر وعناد ، وبين ضلالهم ، وخبث مسعاهم ، وقبح مآلهم ، كل ذلك في آية لا تحمل جملها كثير كلام، وتلك سمة من سمات التشبيه ، وبديع فرائده.

ومما هو من مقام الذم لهؤلاء القوم – أيضا – قوله تعالى :

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُـِٔلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (٢)

لما شرح الله تعالى قبائح أفعال السلف من اليهود، شرع في قبائح أخلاق المعاصرين لرسول الله ﷺ وجدّهم واجتهادهم في القدح فيه والطعن في دينه، وقد وردت في سبب نزول هذه الآية عدة أقوال لعل أشهرها أنها نزلت في كفار مكة حين سألوا النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبا، فقال هي لكم كمائدة بني إسرائيل، فأبوا ورجعوا، وقيل: أنها للمؤمنين من أصحاب النبي ﷺ والمعنى هنا: أتريدون أن تسألوا رسولكم كما سأل موسى قومه تبرما وإعناتا؟ يحذر المسلمين ما فعل أولئك، وقد أتبع التحذير بالوعيد فقال: ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ

(١) ينظر : جواهر الأفكار : ٣١٧ .

(٢) سورة : البقرة: آية : ١٠٨ .

ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي إن ترك الآيات الموجودة والإعراض عنها لإعنات النبي ﷺ بسؤال غيرها لتكون بدلا منها هو من اختيار الكفر على الإيمان واستحباب العمى على الهدى [١]، وقيل: أنها نزلت في يهود المدينة لأن هذه السورة من أول قوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ حكاية عنهم ومحاجة معهم ولأن الآية مدنية ولأنه جرى ذكر اليهود وما جرى ذكر غيرهم، ولأن المؤمن بالرسول لا يكاد يسأله فإذا سأله كان متبدلا كفرا بالإيمان[٢]، وفي سؤالهم النبي ﷺ نوع من لَيِّ ألسنتهم في خطاب الرسول ﷺ بكلمة تنطوي على الاستهزاء به والطعن في دينه وإن كان ظاهرها التعظيم له، أو يراد منها إحراجه بكثرة الأسئلة والمقترحات[٣] وعلى الأقوال الثلاثة يمكن حمل التشبيه في قوله: ﴿ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُ ﴾ على بيان حال القوم، لفائدة التحذير والتخويف من الوقوع في مثل ما وقعوا فيه، مما كان سببا في مقتهم وهلاكهم .

وإضافة الرسول إليهم في قوله: ﴿ رَسُولَكُمۡ ﴾ تسجيلا عليهم قبح صنيعهم، بكثرة سؤاله، والإعنات فيها، فكأنه أراد أنه لما كان رسولكم، فالذي ينبغي منكم عدم إعناته بالأسئلة فوجه الشبه في طرفي التشبيه في الأقوال الثلاثة هو التبرم والإعنات، والمبالغة في الطلب، حتى كاد يخرجه من حد الإيمان ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ بكثرة سؤاله ، وطلبه

(١) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) – محمد رشيد رضا : ١/ ٣٤٣ ،الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – سنة النشر: ١٩٩٠ م.

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان (تفسير النيسابوري) – لنظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري: ١ / ٣٥٣ المحقق: الشيخ زكريا عميرات– الناشر: دار الكتب العلمية بيروت الأولى ١٤١٦ هـ، وينظر :مفاتيح الغيب: ٣ / ٦٤٤.

(٣) النبأ العظيم : ٢٣١ .

ما لا يليق بسائله ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾، الطريق الخطأ الموصل إلى المقت والسخط ، فالآية تعد تحذيرا للمؤمنين من الاستماع إلى وساوس اليهود، تثبيتا لقلوبهم، وتقوية لإيمانهم ، والمعنى: لا يصح لكم أيها المؤمنون أن تقترحوا على رسولكم محمد ﷺ مقترحات تتنافى مع الإيمان الحق كأن تسألوه أسئلة لا خير من ورائها لأنكم لو فعلتم ذلك لصرتم كبني إسرائيل الذين طلبوا من نبيهم موسى ﷺ بعد أن جاءهم بالبينات– مطالب تدل على تعنتهم وجهلهم فقالوا له:﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾[1] وقالوا له: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[2] ، ولو صرتم مثلهم لكنتم ممن يختار الكفر على الإيمان، ولخرجتم عن الصراط المستقيم الذي يدعوكم إليه نبيكم ﷺ ، والاستفهام في الآية الكريمة للإنكار، وفي أسلوبها مبالغة في التحذير من الوقوع فيما وقع فيه اليهود من تعنت مع رسولهم، إذ جعل محط الإنكار إرادتهم للسؤال، وفي النهى عن إرادة الشيء، نهى عن فعله بأبلغ عبارة. [3]، فالغرض من التشبيه ذم بني إسرائيل الذين أرسل إليهم موسى ﷺ، حيث إن الله سبحانه وتعالى ذكرهم في هذه الآية على سبيل الذم، وأن اليهود كانوا سألوا موسى ﷺ عن أشياء فكانت العاقبة فيها وخيمة: فقد سألوا عن أشياء بينت لهم؛ لكنهم لم يعملوا بها؛ فكانت نتيجة

(١) سورة :النساء : آية : ١٥٣ .

(٢) سورة : الأعراف : آية : ١٣٨ .

(٣) التفسير الوسيط للقرآن الكريم د: محمد سيد طنطاوي : ١/ ٢٤٣ – الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة الأولى: ١٩٩٧ م.

السؤال الخيبة.

وقوله: ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ تذييل للكلام السابق على سبيل التهديد والوعيد، والتذييل ما يؤتى في آخر الكلام بما يشتمل على المعنى السابق؛ توكيداً له. (١)، فتشبيه الشيء بما يستقبح ذكره، ويذم فعله، أكثر ترهيبا للنفس، وأشد تأثيرا عليها، وفعل اليهود مذموم، وما شبه بالمذموم يأخذ حكم ما شبه به، فالمقدمات المتشابهة تأتي غالبا بنتائج متشابهة، وقوم موسى لما سألوه وأجابهم، لم يستجيبوا له، ولم يؤمنوا به فضلوا سواء السبيل، ومن هنا حسن التشبيه القياسي الواقع في سياق الترهيب من الإعنات وإتباع الهوى بكثرة سؤال النبي محمد ﷺ.

وإنما جاء هذا المعنى في صورة التشبيه للمبالغة في طرفي التشبيه مبالغة في ترهيب المشبه من الوقوع في حالة المشبه به ، والمبالغة في ذم حال المشبه به، فكأن الترهيب وصل للمشبه بطريقين مختلفين، فإنما يصار في التشبيه إلى توكيد المعنى في نفس المتلقي عن طريق المبالغة في تحقق الوصف، ففي كل تشبيه فرع هو المشبه، وهو المعنى المراد نقله، وإظهاره، وإحداث الاستجابة المناسبة تجاهه، وهو الصورة الأصلية، وأصل هو المشبه به : أي الصورة المشابهة التي يعرض المعنى خلالها.

ولكي تكون الصورة الجديدة أكثر توكيدا للمعنى في النفس، وأقدر على إحداث الاستجابة، لابد أن تكون عناصرها أقوى تمكنا في الوصف، وأظهر في الوجه المشترك(٢)، فمن أراد تشبيه شيء بغيره فلابد من أن

(١) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)- شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي : ٣ / ٤١- ت: إياد محمد الغوج- د. جميل بني عطا- الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم.

(٢) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية –د/ مجيد عبد الحميد ناجي: ١٩٩.

يكون المشبه به أعلى حالا من المشبه؛ لتحصل المبالغة هناك،[١] لأن المشكوك فيه إنما يثبت ويتقرر في النفس بالقياس على المعروف، لا أن يتكلّف في المعروف تعريف بقياسه على المجهول وما ليس بموجود على الحقيقة [٢]

ومما هو من تشبيه ما يقبح ذكره، قياسا بما آل إليه هؤلاء الذين ضل سعيهم، ولم يستقبلوا شرع ربهم إتباعا للهوى مطاع، قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [٣].

ذكر الله تعالى الوحدانية ثم الآيات الدالة على الصانع الذي لا يمكن أن يكون إلا واحدا، ثم ذكر في هذه الآية الجاحدين الضالين معجبا من سوء ضلالهم مع الآيات، لأن المعنى أن في هذه الأمور لآيات بينة[٤].

فهؤلاء قوم لم يجعلهم الحق سبحانه أهلا لمحبته، فشغلهم بمحبة الهوى حتى رضوا لأنفسهم أن يكونوا عبيدا كل ما هوته أنفسهم، فرضوا أن يتعبدوا لمن صنعته أيديهم، وأمام أعينهم ما يدل على وحدانية الصانع، فعاب على المشركين حين اتخذوا من دونه أندادا بعدما أظهر الدلائل،

---

(١) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز

(٢) أسرار البلاغة – عبد القاهر الجرجاني : ٢٢٠ ، تحقيق أبي فهر محمود محمد شاكر ، طبعة : دار المدني جدة الأولى : ١٤١٢هـ ، ١٩٩١م.

(٣) سورة :البقرة : آية : ١٦٥ ، ١٦٧.

(٤)المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – ابن عطية الأندلسي:١/ ٢٣٤– تح: عبد السلام عبد الشافي محمد– ط: دار الكتب العلمية – بيروت الأولى ١٤٢٢هـ

ونصب البراهين، على الوحدانية، فالمراد من الناس في قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾، يعني: المشركين، ﴿ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾ أي أمثالا من الأصنام. وقيل من الرؤساء الذين كانوا يتبعونهم ويطيعونهم وينزلون على أوامرهم ونواهيهم. واستدل بقوله ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ ﴾، وإن كان أخذ اللفظ على إطلاقه أوقع في هذا المقام، ويكون المقصود بالأنداد – هنا – كل ما سوى الله تعالى، واشتغل به العبد عنه.

ومعنى: ﴿ يُحِبُّونَهُمْ ﴾ يعظمونهم ويخضعون لهم تعظيم المحبوب ، وهو نوع من إرداف ذكر الكفر، بعد ذكر ما يدعو إلى الإيمان تقبيحا لشأنهم، وبيانا لفساد مذهبهم، فذكر القبيح بعد الحسن زيادة في بيان الحسن،ومبالغة في تأكيده وتقريره في النفس، قال أبو الطيب المتنبي : [1].

وَنَدِيمُهُمْ وبه عَرَفْنَا فَضْلَهُ * وبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الأَشْيَاءُ**

وقوله تعالى : ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ ، من إضافة المصدر إلى المفعول أي كما يحب الله على أنه مصدر من المبني المفعول، وإنما استغنى عن ذكر من يحبه وهم المؤمنون لأنه غير ملتبس. وقيل: كالحب اللازم عليهم لله، والمعنى: كتعظيمه والميل إلى طاعته،" أي يسوون بينه وبينهم في المحبة والطاعة، والمحبة: ميل القلب من الحب، استعير لحبة القلب، ثم اشتق منه الحب لأنه أصابها، ورسخ فيها" [2].

فالتشبيه يبين مقدار حب المشركين لألهتهم التي يعبدونها من دون

---

(١) البيت لأبي الطيب المتنبي في ديوانه بشرح أبي البقاء العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان: ١: ٢٢ ،[من بحر الكامل] تحقيق : مصطفى السقا وآخرون ط: دار المعرفة – بيروت لبنان .

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان نظام الدين النيسابوري: ١/ ٤٦١ تح: الشيخ زكريا عميرات– ط: دار الكتب العلميه – بيروت–الأولى – ١٤١٦ هـ.

الله تعالى، على حسب هيئتها قصدا إلى توضيح الفكرة، وترسيخها، وإنما حسن التشبيه – هنا – لكونه جاء بعد توضيح فكرة الكفر والعناد، والتأكيد على فساد العقل، وقسوة القلب وإتباع الهوى الزائف، وتعنتهم في استقبال هدي السماء، بعد وضوح الدلالة، وقوة البراهين، وقد كان من الطبيعي أن يتجهوا إلى الله وحده بعبادتهم، ما داموا يعتقدونه متصفا بتلك الصفات، ولكنهم أشركوا به غيره في العبادة، واتخذوا من الأصنام المنحوتة آلهة يعبدون، وجعلوا لهذه الآلهة نصيبا من أرزاقهم يقدمونه قرابين إليها، وحينا يجعلون لله نصيبا من هذه القرابين، ولأوثانهم نصيبا، ثم ينسون نصيب الله ويقدمونه لهذه الأوثان.

"وهكذا تجد للتشبيه مكانه في نقل الفكرة وتصويرها، وقل أن يأتي التشبيه في القرآن بعد أن تتضح الفكرة نوع وضوح كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ (١)، وإذا أنت تأملت أسلوب الآية الكريمة وجدت هذا التعبير أقوى من أن يقال: وإذ صار الجبل كأنه ظلة، لما فى كلمة «نتق» من تصوير انتزاع الجبل من الأرض تصويرا يوحى إلى النفس بالرهبة والفزع، ولما في كلمة «فوقهم» من زيادة هذا التصوير المفزع وتأكيده فى النفس، وذلك كله يمهد للتشبيه خير تمهيد، حتى إذا جاء مكن للصورة في النفس، ووطد من أركانها" (٢).

ومع ذلك ليس التشبيه في الآية الكريمة عملا إضافيا، بل فيه إتمام المعنى وإكماله، فهو يوحى بقبح صنيع هؤلاء الذين جعلوا مع الله آلهة أخرى، واتخذوهم أندادا من دون الله ، بل وسوا بينهم وبين الله في المحبة،

(١) سورة :الأعراف: آية : ١٧١ .

(٢) من بلاغة القرآن أحمد أحمد عبد الله البيلي : صـــ ١٥٣ – الناشر: نهضه مصر – القـــاهرة– عام النشر: ٢٠٠٥.

أو على تقدير حبا كحب المؤمنين لله، إظهارا لشدة حبهم وتعظيمهم لمعبودهم الزائف من دون الله تعالى، وهذا من قبيح الأمر.

وعلى هذا فإن "المراد إنكار محبتهم الأنداد من أصلها لا إنكار تسويتها بحب الله تعالى وإنما قيدت بمماثلة محبة الله لتشويهها وللنداء على انحطاط عقول أصحابها وفيه إيقاظ لعيون معظم المشركين وهم الذين زعموا أن الأصنام شفعاء لهم كما كثرت حكاية ذلك عنهم في القرآن فنبهوا إلى أنهم سووا بين محبة التابع ومحبة المتبوع ومحبة المخلوق ومحبة الخالق لعلهم يستفيقون فإذا ذهبوا يبحثون عما تستحقه الأصنام من المحبة وتطلبوا أسباب المحبة وجدوها مفقودة كما قال إبراهيم ﷺ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾[1]، مع ما في هذه الحال من زيادة موجب الإنكار"[2].

وفي استعمال الاسم الظاهر لفظ الجلالة في قوله ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ في مقام الإضمار لتربية المهابة وتفخيمِ المضاف وإبانةِ كمال قُبحِ ما ارتكبوه ، لما في التعبير فيه من معاني الجمال والجلال. [3]

ثم لما كانت محبة الخالق لا تستوي مع محبة المخلوق ولو كان زيفا، أوضحت الآية الفرق بين المحبين حتى يجنب المؤمنين المشابهة مع الكفار في المحبة، فشتان بين حب تغلغل في القلب بتغلغل الإيمان فيه، وحب بُنِيَ على باطل، فلا بُدَّ من اعتبارِ المشابهة بينهما في أصل الحبِّ لا في وصفِه كماً أو كيفا، فقال سبحانه:﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ تفضيلا

(١) سورة :إبراهيم: آية : ٤٢ .

(٢) التحرير والتنوير :٢ / ٩١ .

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم – أبوالسعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى :١٨٦/١ ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت .

لحال حب المؤمنين لله وإخلاصهم في تلك المحبة التي لا يشوبها نوع شرك، أو ذكر ند لله قلبا وقولا، وهو من المبالغة في مدح المؤمنين، والذم والقدح في المشركين، وقيل: إنما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ لأنّ الله أحبهم أولاً ثم أحبوه، ومن شهد له المعبود بالمحبة كانت محبته أتمّ قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ (١)، فمحبة العبد لله طاعته والاعتناء بتحصيل مراضيه، ومحبة الله للعبد إرادة إكرامه واستعماله في الطاعة وصونه عن المعاصي (٢)،

فالمعنى في قوله:﴿أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ أي :" أثبت وأدوم على حبه؛ لأنهم لا يختارون على الله ما سواه، والمشركون محبتهم لأغراض فاسدة موهومة تزول بأدنى سبب، ومآلُه أن حبَّ أولئك له تعالى أشدُّ من حب هؤلاءِ لأندادهم فيهِ منَ الدَلالة علَى كون الحبِّ مصدراً من المبنى للفاعل مالا يخفى وإنما لم يُجعل المفضلُ عليه حبَّهم لله تعالى لما أنَّ المقصودَ بيانُ انقطاعِه وانقلابِه بغضاً وذلك إنما يُتصور في حبهم لأندادهم لكونه منوطاً بمبانٍ فاسدةٍ ومبادٍ موهومةٍ يزول بزوالها قيل ، ولذلك كانوا يعدلون عنها عند الشدائد إلى الله سبحانه وكانوا يعبُدون صنماً أياماً فإذا وجدوا آخَرَ رفضوه إليه وقد أكلت باهلةُ إلهها عام المجاعةِ وكان من حيس وأنت خبيرٌ بأن مدارَ ذلك اعتبارُ اختلال حبِّهم لها في الدنيا وليس الكلام فيه بل في انقطاعه في الآخرة عند ظهورِ حقيقةِ الحال ومعاينةِ الأهوال ، بل اعتبارُه مخِلٌّ بما يقتضيه مقامُ المبالغةِ في بيان كمالِ قبحِ ما ارتكبوه وغايةِ

(١) سورة : المائدة: بعض آية : ٥٤ .

(٢) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي :١/١١٠: مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة ١٢٨٥ هـ، وينظر: غرائب القرآن: ١/ ٤٦١ .

عظم ما اقترفوه وإيثارُ الإظهار في موضعِ الإضمارِ لتفخيمِ الحُبِّ والإشعارِ بعلّته[1]

والوصول إلى أفعل التفضيل بواسطة أشد في قوله ﴿أَشَدُّ حُبًّا﴾ ، مع إمكان مجيئه على أصله، لأن أحب معناها طرفان اشتركا في صفة الحب ، وزاد أحدهما عن الآخر في الوصف، ولذا آثر التعبير بواسطة أشد للدلالة على التفاوت الكبير بين الحبين، فهما وإن كانا متساويين في الاسم ، إلا أن الصفة والكيفية متنوعة ومفترقة.

فالمقصود من قوله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ تنقيص المشركين حتى في إيمانهم بآلهتهم فكثيرا ما كانوا يعرضون عنها إذا لم يجدوا منها ما أملوه. فمورد التسوية بين المحبتين التي دل عليها التشبيه مخالف لمورد التفضيل الذي دل عليه اسم التفضيل هنا، لأن التسوية ناظرة إلى فرط المحبة وقت خطورها، والتفضيل ناظر إلى رسوخ المحبة وعدم تزلزلها"[2].

كما أن في قوله:﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ توطئةً لما يعقُبها من بيان رخاوةِ حبِّهم وكونِه حسرة عليهم يوم القيامة، وخزي وندامة، ولما كانت هذه المفاضلة في غاية القباحة والافتراء كان تعقيب القرآن الكريم عليها بأبلغ العبارات التي تدل على الإهانة والطرد من رحمة الله حيث قال سبحانه عقب ذلك ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ ، فقد أبان القرآن الكريم بهذا التعقيب عن حالهم ، وكشف عن مصيرهم بأبلغ إشارات.

(١) تفسير أبي السعود :١/١٨٦ .

(٢) التحرير والتنوير :٢ / ٩٢ .

فقوله سبحانه :﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ﴾ قرئ بالتاء"[١] والخطاب ليس لمعين بل لكل من يتأتى منه الخطاب زيادة في تقبيح شأنهم، وكأن قبحهم ظاهر واضح لكل راء، بيِّن لكل مستمع ذي عقل "وذلك لتناهي حالهم في الفظاعة والسوء، حتى لو حضرها الناس لظهرت لجميعهم[٢]، زيادة في الحسرة والندامة، والتنكيل بهم وبمعتقدهم الفاسد، وفي التعبير عنهم باسم الموصول وصلته ﴿ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ﴾ إيماء أن عذاب الله لهم كان بسبب ظلمهم لأنفسهم بعدم اتباع شرع ربهم، واتباعهم أندادا من دون الله، كما أن التعبير بالموصولية إشارة إلى أنه ينبغي أن يكون هؤلاء معروفين مشهورين بهذه الصفة بحيث إذا سمع بهم تبرأ الناس منهم وقبحوا فعالهم ، زيادة على ما في التعبير بالموصولية وإسنادهم إلى الظلم هيأ اسناد العذاب الشديد لهم، واختصاصهم به، وفيه من قوة الإهانة واللعنة لهم ما لا يخفى"[٣].

ويأتي قوله سبحانه ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾بعد بيان أن القوة الله جميعا، وعطفٌ عليه، وفائدتُه المبالغةُ في تهويل الخطبِ وتفظيعِ الأمر فإن اختصاصَ القوة به تعالى لا يوجب شدةَ العذاب لجواز تركِه عفواً مع القدرة عليه، وجوابُ لو محذوفٌ؛ للإيذان بخروجه عن دائرة البيانِ، إما لعدم الإحاطةِ بكنهه، وإما لضيق العبارةِ عنه، وإما لإيجاب ذكره مالا يستطيعه المعبِّر أو المستمِعُ من الضجر والتفجُّع عليه، أي لو علموا- إذ رأوُا العذابَ قد حل بهم، ولم يُنقِذْهم منه أحدٌ من أندادهم- أن القوة لله

(١) كتاب السبعة في القراءات – أبو بكر بن مجاهد البغدادي: ١٧٤- المحقق: شوقي ضيف- ط: دار المعارف – مصر-: الثانية، ١٤٠٠هـ.

(٢) التحرير والتنوير :٢ / ٩٣ .

(٣) ينظر : من أسرار اسم التفضيل في الذكر الحكيم – د/ أحمد السيد طلحة داود – صـ ٤٨،٤٩ ، ط : دار الغدير للطباعة والنشر بدون ت ، بدون ط.

جميعاً، ولا دخل لأحد في شيء أصلاً، لوقعوا من الحسرة والندم فيما لا يكاد يوصف(١).

ثم تزيد الصورة في كشف ما عليه القوم من حسرة وخزي يوم القيامة ببيان حالهم مع معتقداتهم التي أحبوها بتخلي كل منهم عن الآخر، كأنه قبيح يريد التخلص منه في قوله سبحانه :﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ والتبرؤ تكلف البراءة وهي التباعد من الأمر الذي من شأن قربه أن يكون مضرا، بيد أن هذا التبرؤ لا فائدة منه، والكلام كناية على ندمهم وشدة تحسرهم بإتباعهم، والمبالغة في تعظيمهم في الدنيا ، وما علموا ذلك إلا بعدما عاينوا العذاب وتقطعت بهم سبل الطاعة والولاء ، وتنموا أن لو رجعوا إلى الدنيا مرة أخرى، والمعنى: وقال الأتباع الذين تبرئ منهم: لو رددنا إلى الدنيا حتى نعمل صالحا ونتبرأ منهم، والكرة : العودة إلى حال قد كانت، والتمني بـــ " لو" يجسد تلك الأمنية المستحيلة، والإشعار بعزة المتمنى، والمبالغة بإيغاله في البعد والإحالة ، فالأمنية بهذه الأداة تبرز الشعور باللهفة البائسة، وحسرة النفس على ما فاتها في الدنيا لاسيما بعد أن عاين العذاب بعينيه ، وتحسس لهيب العذاب بقلبه وجوارحه،" وتمني المعذبين العودة إلى الدنيا إنما يعكس حسرة وندما وألما نفسيا لا يطاق، والتمني يعين الأسلوب كله على تصويره، فهم يأتون بالمادتين "رد" و "كر" من الفعل المضعف الدال على الرد بقوة وسرعة، ولذا لم يعبروا بالفعل (نرجع) أو(نعود) استطالة لزمنه، ثم غن المعذبين

(١) تفسير أبي السعود :١٨٦/١ .

مواقف، ولتمنيهم درجات، ذلك أنهم حين يرون العذاب وأهواله، ﴿ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ﴾ قبل معاناة ويلاته تكون الرغبة الجارفة قوية، والأمل حيا حارا في الهروب، أو العود إلى الدنيا"(١).

وسر المجيء بلو للتمنى، وهى تدل على الامتناع، إشعار السامع من أول الأمر بامتناع هذا المتمنى واستحالة وقوعه.

فما زال الأتباع– في هذا المشهد– على غبائهم وسذاجتهم، وانقيادهم للمتبوعين، اعتقادا منهم أنّ المتبوعين يملكون قدرة فائقة على دفع العذاب عنهم، ولكنّ الصورة لا تترك هؤلاء الذيول الضعاف على تصوراتهم في أسيادهم كما كانوا في الدنيا يفعلون ويعتقدون، فها هم أولاء أمامهم عاجزون ضعفاء مثلهم أيضا، ويكرّر القرآن الكريم تصوير مشهد الأتباع والمتبوعين، وما يدور بينهم من حوار واتهام وخصام، وذلك لأهمية الدور الذي يقوم به المتبوعون في الدنيا بإضلال أتباعهم عن الطريق المستقيم. (٢)

فذلك تمن منهم لأن يتمكنوا من الرجعة إلى الدنيا وإلى حال التكليف فيكون الاختيار إليهم حتى يتبرءون منهم في الدنيا كما تبرؤا منهم يوم القيامة، ومفهوم الكلام أنهم تمنوا لهم في الدنيا ما يقارب العذاب فيتبرءون منهم ولا يخلصونهم ولا ينصرونهم كما فعلوا بهم يوم القيامة وتقديره: فلو أن لنا كرة فنتبرأ منهم وقد دهمهم مثل هذا الخطب كما تبرؤا منا والحالة هذه لأنهم إن تمنوا التبرأ منهم مع سلامة فليس فيه فائدة. (٣)، إذ لا يفيدهم

---

(١) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم – د/ صبّاح عبيد دراز : صـ ٢٦٧ ، مطبعة : الأمانة – الأولى – ١٤٠٦هـ ،١٩٨٦م.

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن– عبد السلام أحمد الراغب: صـ ٣٥٢– الناشر: فصلت للدراسات والترجمة والنشر حلب–الأولى، ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١ م.

(٣) مفاتيح الغيب : ٤ / ١٨١ .

تحسرهم شيئا لوقوعه بغير محله وتفريطهم في الدنيا فلو كان ندمهم فيها لنفعهم أما وقد فات محله، فلا فائدة فيه إلا زيادة الأسف والأسى والتحسر. (١)

والصورة في مجملها من قبيل تأكيد ما سيحدث في المستقبل ، ووضعه في صورة الواقع والموجود فعلا " والتركيز في هذا المشهد، على إبراز تبرؤ المتبوعين من أتباعهم، يوم القيامة، وتمني الأتباع أن يعودوا إلى الدنيا، بعد أن عرفوا حقيقة متبوعيهم لكي يتبرءوا منهم أيضا، وهذا المشهد من مشاهد القيامة، يعرض على الأتباع، وهم ما زالوا في الدنيا، ليحذرهم من هذا الانقياد المعروفة عواقبه، فهم ما زالوا يملكون تحقيق أمنيتهم في التبرؤ من متبوعيهم ، وهذه طريقة القرآن الكريم في تصوير المشهد قبل وقوعه بما فيه من مواقف، وحقائق، ولمسات نفسية، لتحقيق الغرض الديني منه، كما أن هذه المشاهد، تبرز اتصال الدنيا بالآخرة، إذ ينتقل الناس بأحوالهم ومواقفهم واعتقاداتهم وأفعالهم، وأدوارهم إلى اليوم الآخر، ليحاسبوا على ذلك كلّه، ويواجهوا نتائج أعمالهم. فصورة الإنسان في مشاهد القيامة، هي امتداد لحياته في الدنيا، بلا فواصل بين الدنيا والآخرة حتى يبقى اليوم الآخر قريبا من حسّه وشعوره، فيكون مستعدا له، وحذرا من وقوعه المفاجئ، ويقف الشيطان من وراء الأتباع والمتبوعين، يدفع الأتباع ويغويهم بالانقياد، ويغري المتبوعين بتضليل الأتباع والضعفاء، ثم ينفض يديه هو أيضا يوم القيامة (٢).

فقد قامت تلك الصورة التشبيهية وتراكيبها في رسم صورة مزرية

(١) بيان المعاني – عبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني : ١١٤/٥ ط: مطبعة الترقي – دمشق الأولى، ١٣٨٢ هـ – ١٩٦٥ م.

(٢) وظيفة الصورة الفنية في القرآن : صـ ٣٥٢-

قبيحة لهؤلاء للكافرين المعاندين، تبعث على احتقارهم، والحط من شأنهم ومن ثم ازدراؤهم، حين تجسد لنا عقيدة هؤلاء القوم الفاسدة، حين جعلوا مع الله آلهة، وعظموهم، وخضعوا لأمرهم خضوع إذعان وامتثال، وما ينبغي ذلك إلا لله الواحد الأحد، وبتلك الصورة المزرية نرى أنها تركت أثرا سيئا في النفس دعت إلى البعد عن كل من اتصف بها والتحقير من شأنها، ففي تلك المشاهد ، وتصوير تلك المواقف ما يدل على حيرة هؤلاء القوم، وتخبطهم في منازع الضلال ، وترددهم في معتقدهم الفاسد، فهوى بهم في درك الفساد، ولقد كان لتلك الصور المتشابهة الأثر البالغ في بيان حال هؤلاء الصادين عن شرع الله ، الرافضين في عنت وإنكار استقبال هدي السماء إلى أهل الأرض ، كما كان في التشبيهات أثر بالغ – أيضا – في زيادة الكشف عما عليه هؤلاء الناس من اعتقادات فاسدة ، وقلوب قاسية كاسدة .

وهكذا ترابط أجزاء الصور التشبيهية، مع المعنى الأصيل، أو المقصد الأسمى من سورة البقرة، فيما يخص المعنى الفرعي الأول ، في مقام الحديث عن فاسدي العقيدة أمثال المنافقين الذين يبطنون خلاف ظاهرهم، أو الكافرين بما أنزل الله من كتاب ، وهي صور كاشفة حقيقة هؤلاء الذين كابروا وعاندوا، ولم يستقبلوا إرسال السماء لهدي الأرض، وذلك في مقامات متقاربة وجذور يتولد كل منها من الآخر.

ويتناسب جو الآية مع السياق العام للسورة كلها ، فتلاءم السياق المقالي مع المقام الحالي، وهو الحديث عن حال طائفة الكفار الذين لم ينتفعوا بما سمعوه، ولم يستضيؤا بما أنزل على محمد ﷺ، ورفضهم هديه ﷺ فكانوا كالأنعام بل هم أضل، فالصورة التشبيهية بُنِيَت على تشبيه حال بحال، وهي حال الكفار عند سماعهم دعوة النبي محمد ﷺ وإعراضهم عنها، بحال الغنم تسمع صوت من يزجرهم، ويصيح فيهم دون

معرفة ما هو مطلوب منهم فيسرحون دون هداية أو إرشاد، وتلك الصورة المكررة في سورة البقرة تحمل المعاني ما يجعلها فريدة في بابها، بليغة في سياقها،" فإنه قصد تشبيه المدعوّ بالغنم التى يُنعق بها، وداعيهم بالناعق بالغنم، فأجمل وراعى مقابلة المعنى دون مقابلة اللفظ؛ وبسط الكلام(١)، وتكون المفارقة التصويرية هنا أنه بالرغم من هذا الصوت العالي ، فإن الكفار لا يفهمون منه إلا كما تفهم الماشية من الدوى ، وذلك لأنهم ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾(٢)

ولا يفوتني قبل أن أنتقل إلى مقام أخر الوقوف على بلاغة هذا التكرار اللفظي لصورة تابعة لتركيب تشبيهي متبوع، وهو قوله تعالى تذييلا لتلك الصورة :﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾، وما بينها من تناسب مقالا ومقاما لما جاء في التشبيه الأول في بداية السورة تعقيبا: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ ــ ولست بصدد الحديث عن الصورة التشبيهية الموجودة في الآيتين – فقد أغنانا ما سبق – وإنما نقف على اللطيفة القرآنية في هذا التكرار مع اختلاف الفاصلة القرآنية ، والتي جاءت كل منها كاشفة على سياق حالي للمشبه في الطرفين .

ففي التشبيه الأول من السورة وهو نفي الرجوع في قولــه ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ لأن مقام الحديث فيها كان على طائفــة عرفــوا الحق وأنكروه، وبالغوا في إنكاره قلبا وقالبا، حتى وصلوا في ذلــك إلــى درجة شديدة من النفاق فاستوقدوا النار، وما استضاؤا بها فتحيرت عقولهم

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز – مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى : ٤/ ٤٨٣– المحقق: محمد علي النجار– الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

(٢) من بلاغة الفرائد الفذة في القرآن الكريم (المضارع نموذجا) : صـــ ١٠

وضل طريقهم وما عادوا يستطيعون الرجوع بعد ما أطبقت عليهم ظلمة الغي والطغيان، أما في التشبيه الآخر في قوله :﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ وعدم التعقل هنا معناه عدم الفهم لما يلقى عليهم من كلام ، فالرسول ﷺ يدعوهم، ويبالغ في دعائهم بما توحيه المفردة الفريدة في جانب المشبه به ﴿يَنۡعِقُ﴾ من شدة الصياح مع تكراره وتجدده ، وهم يقابلون ذلك إعراضا وصدا، ولا يعقلها إلا العالمون، وتكرير الصور–على حد تعبير شيخنا دكتور صبَّاح دراز: "حين يحمى المقام، وتتداخل المشاعر، ويحتد الأسلوب، ويتوهج الانفعال وينتشر، ويترقى الحدث صعدا، عالي النبرة، جهير النغمة، شديد الجرس، ولذا يتكرر التعبير؛ ليوزع الانفعال فيه، بحيث لو حذف لكان التعبير مبتورا، كصيحة لم تتم، أو جملة لم تكتمل، أو استصراخ من مستغيث يتكرر، أو آهة متألم تتوالى، أو لفظة حنان، وآلة متدله تذوب بها حبات القلوب"(١).

ومن هنا ظهرت علاقة هذه الصور التشبيهية المذكورة بسياق تشبيهات الإنفاق في السورة الكريمة والعودة بها إلى المعنى الأم، والمقصد الأسمى للسورة الكريمة، وهو وجوب الإيمان بالله المستلزم منه الإيمان بكل ما غاب عنه والمتمثل في قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾، فدارت الصور مع تتابعها حول مقصد واحد.

والجامع بين تشبيهات الإنفاق، والتشبيهات الأخرى في السورة الكريمة، هو ذلك اليقين التام بالقدرة الإلهية القادرة على مضاعفة الثواب لتلك الطائفة، فاستحقت أن تكون خير أمة أخرجت للناس؛ تلك النفس التي اطمأنت إلى الله، وسكنت إليه، فكان لهم الجزاء الأوفى من الله وزيادة،

(١) البلاغة القرآنية عند الخطابي – دكتور/ صبّاح عبيد دراز : ٨٩ – مطبعة الأمانة – الأولى : ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦ م.

فكانت السنابل التي تنبت ألف حبة، وكانت الجنة بربوة أصابها المطر فكثر الخير وعم ، وكانت الجنات من النخيل والأعناب ، من قدر لله قدره، وأتى بالطاعة وفاء وشرطا، وقد رسمت صورة التشبيه في سورة البقرة هذا النموذج الأسمى في صورة تمسكهم بالطاعة، وحرصهم على الانتفاع بما شرعه الله لهم، وتسابقهم في الخير، فكانوا ممن عناهم الله بقوله في صدر سورة البقرة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾، جزاء وفاقا لتقبلهم شرع الله، وتمسكهم به، ومن هنا نستطيع أن نرد عجز تلك الصور إلى صدورها، ومؤخرة الكلام إلى مقدمته، في تناسق بارع، وتماسك بديع، وحمل للمعاني المتنوعة في تلك السورة الكريمة إلى مقصدها الأسمى، ومغزاها الأعلى بما يسمى بالمعنى الأم أو المعنى الأصيل للسورة الكريمة، وهو صورة الناس وتعاملها مع ما نزل من السماء من تشريعات وأحكام، فكشفت تلك الصور التشبيهية – مع تنوعها وتعددها – تلك النفوس، وأظهرت الفرق الشاسع، والبون الواسع بين من عاند وأنكر، ومن أذعن وصدق في سياق قائم على تلاؤم أجزاء الكلام، وتناسق آياته ومفرداتها، بما يفي بالمعنى، ويصل إلى المراد.

وإنني أرجو بهذه الإشارات البلاغية لصورة التشبيه في آيات الإنفاق في سورة البقرة، وعلاقتها بالمعنى الأم، وأثر ذلك على التماسك النصي وسياقاته الحالية والمقالية ، أرجو أن أكون قد وضعت ألسنة أقلامنا، ومفتتح عقولنا إلى بدايات الطريق النافع، الذي يصل بنا إلى مراد الحق من الخلق، وإظهار بعضٍ من صور الإعجاز القرآني المحكم الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾(١).

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سبيل الهدى والرشاد.

(١) سورة : فصلت : آية : ٤٢ .

الخاتمة

الحمد لله بداية لا تنتهي ونهاية لا تزال تبدأ ، وأصلي وأسلم على هادي البشرية محمد بن عبد الله – ﷺ– وعلى آله وصحبه ، ومن سار على طريقته ، واستن سنته إلى يوم لقاء الله رب العالمين ... وبعد

فمن خلال تلك التطوافة المباركة في رياض القرآن الكريم من خلال الرحلة العلمية والعيش في رحاب الحديث عن موضوع [المعنى الأم في تشبيهات الإنفاق في سورة البقرة وأثره في تماسك النص] فإنني أستطيع الوقوف على عدة نتائج وتوصيات خرج بها هذا البحث الكريم لكرم مادته .

(أ) - النتائج :

أولا : حين النظر إلى مصطلح المعنى الأم نجد أنه يضرب بجذور قوية في أعماق التراث العربي بصفة عامة، والتراث البلاغي القديم بصفة خاصة، منذ أن بدأت البلاغة في صورة ملحوظات نقدية على ألسنة الشعراء، إلى أن صارت علما مستقلا مستويا على سوقه تحت أقلام العلماء والدارسين، ومن ثم فهو مصطلح عربي أصيل مكون من كلمة وما وصفت به.

ثانيا : المعنى الأم في النص نوع من التماسك النصي في الكلام، وصورة من صور التناسب والتلاحم في النص لتلاحم معانيه، وتناسب مقاصده، وتماسك تراكيبه، فالنص الجيد ما كان أوله تمهيدا لآخره، وأوسطه دليلا وبرهانا لنتائجه، وآخره نتيجة لما احتواه من جمل وتراكيب في أوله ، فيدور النص حول معنى واحد أصيل، متفرع منه عدة معان، تلك الفروع تحتوي على جذور فرعية، فتكون الألفاظ متماسكة، والمعاني متلاحمة خارجة مع تعدده من رحم واحد، وتعود في مجملها إلى هذا المعنى الأصيل المسمى بالمعنى الأم، وهذا المعنى الأم يقع في تركيب واحد أو عدة تراكيب متتابعة يطلق عليها – أيضا– بالجملة الأم تعود تراكيب

النص إليها بدأ ونهاية .

ثالثا: المعنى الأم عادة ما يكون مرتكزا في مطالع السور القرآنية، ومن ثم لابد من ربط مطالع السورة القرآنية بمقاصدها، والوقوف على العلاقات الوشيجة بين عناصر أجزائها، لكونها الجذور الفرعية للمعنى الأم الأصلي ، ولولا تلك العلاقات ما استطاع القارئ إلى تذوق النص، أو الوقوف على المعنى، ولذلك كان معرفة المعنى الأم، أو المقصد الأسمى من السورة القرآنية هو الوسيلة القويمة للوصول إلى خصائص النظم القرآني والوقوف على آيات إعجازه .

رابعاً : أن من أهم صور الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم هو ذلك البناء الكلي الذي يقوم على مبدأ التماسك النصي ، والتجانس المعنوي بين مفردات آياته وتراكيبها، وأن ثمة علاقة داخلية تربط السياق المقالي بمقصد السورة القرآنية، تساعد على ترابط النص ، وتلاحم أجزائه وهو ما يسمى بالمعنى الأم ، أو الهدف الأسمى من السورة القرآنية.

خامساً : أن نظرية التماسك النصي التي يتغنى بها أصحاب المذاهب النقدية الحديثة، كان منشؤها، وبداية بذرتها على أرض العرب، فولدت تحت ألسنة أقلامهم، ونشأت وتطورت في رحاب عقولهم، وما الفكر الغربي في ذلك إلا عقول استولت على ما ليس لها، وألبسته ثوبا غير ثوبه، وقدمته لعقولنا في صورة المنشئ والمبدع له، وليس هذا قدحا فيهم قدر ما هو نقص في عقولنا التي عجزت أن تأخذ ما ترك أجدادنا من تراث فكري، وتجدد فيه وفق ما يتلاءم ومناهجنا العربية الأصيلة، ووقف دورها في ذلك على كونه رد فعل لكل مذهب حديث يخرج إلينا ، ونثبت أن أصل جذره من بنات أفكار أجدادنا، وهكذا مع كل مذهب نقدي جديد .

سادساً : للتماسك النصي صور كثيرة في آي الذكر الحكيم، ووسائل تعبيرية متعددة تنسج من خلالها العلاقات السياقية، لتشكل وحدة عضوية بين الكلمة وأختها، والجملة التركيبية وما يجاورها، بل بين الصور الكلية

وما يتبعها من كلام، وهذا ما يعرف في علوم القرآن بالتناسب، أو مراعاة النظير، أو علاقة الآيات بما قبلها، ويتعدى الأمر إلى دراسة العلاقة بين السور القرآنية وما يجاورها، وذلك لأن القرآن الكريم مبني كله على الوصل، فتتآلف العلاقات المعجمية مع العلاقات الدلالية للوصول إلى مراد الحق من الخلق في تلك الصور التشريعية المبنية على عرض الأحكام، أو مبدأ الترغيب والترهيب في الأمر.

سابعا: ظهور آيات التناسب والانسجام بين سورة البقرة وما يجاورها والاتفاق على بيان قضية مهمة وهي قضية العقيدة والإيمان بالله تعالى، وتصديق ذلك قلبا وقالبا، وموقف الناس واختلافهم في ذلك، بالوقوف على المقاصد العامة للسورة، ومحاولة إرجاعها جميعا إلى مقصد واحد، وهو ما يسمى بالمعنى الأم الذي يتحكم في تناسب المعاني الجزئية في السورة وتناسقها، وتدعو إلى التماسك النصي بين أجزائها وجملها، "والذي عليه جماعة من العلماء أن السورة ذات غرض واحد، وتتنوع الموضوعات فيها وفاء بهذا الغرض الأصلي، وقد شاع ذلك في حديثهم عن المناسبات"(١). فالمعاني تختلف وتتفق، وتجتمع وتفترق وتتعدد أنواعها وأجناسها، ثم في النهاية تلتقي عند وظيفة واحدة، أو مفهوم واحد يجمل ما فصل، وقصة بني إسرائيل مع البقرة والتي سميت السورة باسمها، تضع أمام أعيننا غرضا أصيلا لها، يمكن حمل المعاني المتعددة فيها إليه، وهو قضية إحياء الموتى ، وهي قضية عقدية تدور حولها جل أمور العقيدة الإسلامية عقيدة وعملا.

ثامنا : تشبيهات السورة الواحدة جزء من مكوناتها التعبيرية تجري في سياقها، وتنطوي مع مقاصدها، وتأتي نهجا لأهدافها، ومن ثم فإن غرضا واحدا يجمعها، ومقصدا أصيلا هو غرضها، "ولا شك أن دراسة تشبيهات

(١) علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم :صـ ٣٩.

سورة من سور القرآن، دراسة متأنية، جديرة بأن تكشف الوشيجة الجامعة بين هذه التشبيهات؛ لأنها ما دامت قد جرت في سورة واحدة ، ذات سياق واحد ، فلابد أن تكون فيها جامعة تجمعها، وهذه الجامعة قد تخفى وتدق، ولكنها دقيقة ورائعة، كهذه الطباع الخفية الحية التي تراها تجري في أبناء العشيرة الواحدة، أو كهذه السيما والملامح الدقيقة التي تراها في القوم يرجعون على أب واحد؛ لأن كل رموز السورة، وصيغها، وصورها ترجع إلى ما يشبه أن يكون أبا واحدا، هو المحور الذي تدور حوله"[1].

تاسعا : معرفة الوشيجة القوية بين تشبيهات سورة البقرة متوقف على معرفة السياق، وبيان المعنى العام الذي تدور حوله السورة الكريمة، وإذا كنا قد وقفنا على هذا المعنى العام، وهو صورة القلب في استقبال أمر السماء، فإننا نستطيع أن نجمع جل تشبيهات السورة الكريمة على غرض أصيل، تدور حوله تلك التشبيهات مثلها في ذلك مثل المعنى الأم الذي يربط مكونات السورة بعضها البعض، حيث إن تلك الصور البيانية ترجع إلى ما يشبه أن يكون أبا واحدا هو المحور الذي تدور حوله تلك التشبيهات المتنوعة والمتعددة في السورة الواحدة لاسيما وإن كانت من السور الطوال. .

عاشرا : ومن خلال الوقوف على المعنى الأم لسورة البقرة، نستطيع أن نرد أعجاز تلك الصور التشبيهية إلى صدورها، ومؤخرة الكلام إلى مقدمته، في تناسق بارع، وتماسك بديع، وحمل للمعاني المتنوعة في تلك السورة الكريمة إلى مقصدها الأسمى وهو الإيمان بالغيب ، وما يحتويه من صور عقدية، فأظهرت الفرق الشاسع، بين من عاند وأنكر، ومن أذعن وصدق في سياق قائم على تلاؤم أجزائه ، وتناسق آياته مع مفرداتها، بما يفي بالمعنى، ويصل إلى المراد.

(١) دراسة في البلاغة والشعر: صـــ ٣٥

حادي عشر : بنيت تشبيهات الإنفاق في سورة البقرة على صور متقابلة ترغيبا وترهيبا ، ثوابا وعقابا ، فذكر في سياق الثواب العظيم مثالين يبعثان في النفس نوعا من السباق الداخلي، والمنافسة الخارجية للوصول إلى وعد الله المحقق جزاء إخلاصهم ، ويقابل ذلك تشبيهات تبعث في النفس نوعا من التندم والتحسر على ما فرَّط فيه، وما تجاوزه من فضل، والتعبير بالضد في صور التشبيه من عرض المعنى في وضوح ، والكشف عن نفسيات المنفق في الصورتين إيجابا وسلبا.

(ب) التوصيات

أما عن التوصيات فإني أوصي الباحثين أن يوجهوا أقلامهم، وعقولهم قِبَلَ سور القرآن الكريم للوقوف على المعنى الأم لكل سورة، وعلاقة مقاصدها المتعددة به، وأثر ذلك في تماسك النص وتلاحم أجزاء الكلام، وتطبيق الأساليب البلاغية على ذلك، فالأبواب قد فتحت على يد شيوخنا وأساتذتنا، ويحتاج إلى من يضع لبنة في صرح هذا المشروع البلاغي الكبير، الذي يقف على وجه من وجوه الإعجاز القرآني، وليس عليك أن تصل للغاية ، فيكفي أن تكون طريقا للوصول لتلك الغاية.

وبعد: اللهم هذا بحثي قد ضمنته جهدي،لأدرك من خلاله جانبا من جوانب الحق الذي يتم به الخير، فتقبله – ربنا – بقبول حسن وأنبته نباتا حسنا، وأجرنا فيه خيرا، وحسبي أني اجتهدت، ولا يخطئ المجتهد الأجر.

والحمد لله بداية لا تنتهي

ونهاية لا تزال تبدأ.

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فهرس المصادر والمراجع

أولا : القرآن الكريم (ذلك الكتاب لا ريب فيه)

ثانيا :

١- الإتقان في علوم القرآن-جلال الدين السيوطي: تحقيق :محمد أبو الفضل إبراهيم- طبعة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٢- الاحتباك في الذكر الحكيم (مواقعه وأسراره) د/ إبراهيم صلاح الهدهد: ـــمكتبة الجامعة الأزهرية،

٣- الاحتباك في النظم القرآني- د/ محمود عبد الله صيام: ،الأولى : ١٤٢٠هـ ، ٢٠٠٠م.

٤- أحكام القرآن- أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص: - تح : محمد صادق القمحاوي- ط: دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤٠٥هـ.

٥- الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم - د/ صبّاح عبيد دراز - مطبعة : الأمانة - الأولى - ١٤٠٦هـ ،١٩٨٦م.

٦- أساليب البيان والصورة القرآنية - د/ محمد إبراهيم شادي- طبعة : دار والي بالمنصورة - ١٩٩٥م

٧- أسباب نزول القرآن - أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي - ت: كمال بسيوني زغلول ط: دار الكتب العلمية بيروت الأولى،١٤١١ هـ.

٨- أسرار البلاغة: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الفارسي الأصل، الجرجاني الدار، قرأه وعلق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بالقاهرة الأولى - ١٤١٢هـ ١٩٩١م.

٩- أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم - د/ إبراهيم صلاح الهدهد : ، ط الإيمان -الأولى ١٤٣٤هـ ٢٠١٣م.

١٠- أسلوب المدح والذم في الذكر الحكيم"دراسة بلاغية" – د/إبراهيم صلاح الهدهد–مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع– مكتبة الجامعة الأزهرية.
١١- إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز بديع الزمان سعيد النورسي، تح: إحسان قاسم الصالحي–ط: شركة سوزلر القاهرة– الثالثة، ٢٠٠٢.
١٢- الأصوات العربية – د/ كمال بشر: ، طبعة : مكتبة الشباب القاهرة ١٩٨٧م.
١٣- إعراب القرآن المنسوب للزجاج – تحقيق ابراهيم الابياري – طبعة دار الكتاب – لبنان – بيروت– الثالثة : ١٩٨٦م .
١٤- أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)– الشريف المرتضى العلوي – تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم– ط: دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه) الأولى، ١٣٧٣ هـ– ١٩٥٤ م.
١٥- أنوار التنزيل وأسرار التأويل– ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي – ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي– الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت– الأولى – ١٤١٨ هـ
١٦- البحر المحيط في التفسير أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي المحقق: صدقي محمد جميل– ط: دار الفكر – بيروت–: ١٤٢٠ هـ.
١٧- البرهان في تناسب سور القرآن– أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر– تحقيق: محمد شعباني– ط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المغرب– عام النشر: ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م.
١٨- البرهان في علوم القرآن: أبو عبد الله بدر الدين الزركشي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه ، الأولى، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧م.
١٩- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز – مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى:– المحقق: محمد علي النجار– الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

٢٠- البلاغة العربية – عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني : الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت- الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.
٢١- البلاغة القرآنية عند الخطابي – دكتور/ صبّاح عبيد دراز : – مطبعة الأمانة – الأولى : ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦ م.
٢٢- البنية الحسية في التعبير القرآني – د/ ابراهيم سعيد السيد – طبعة : النابغة للنشر – الأولى – ١٤٣٥هـ ٢٠١٤م .
٢٣- بيان المعاني – عبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني مطبعة الترقي – دمشق الأولى، : ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٥ م.
٢٤- البيان والتبيين – لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ – تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون – طبعة دار الجيل بيروت .
٢٥- تأويل مشكل القرآن أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة – المحقق: إبراهيم شمس الدين- ط: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
٢٦- التحرير والتنوير: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد- محمد الطاهر بن عاشور- طبعة : الدار التونسية للنشر تونس ١٩٨٤ م
٢٧- التشبيه المتتابع في القرآن الكريم – د/ عادل إبراهيم حنبل طبعة : أبو الروس – الأولى – ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .
٢٨- التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان – د/ محمد محمد أبو موسى – مكتبة وهبة ، الطبعة الثامنة – ١٤٣٩هـ ، ٢٠١٧م .
٢٩- تفسير أبي السعود إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم – أبو السعود العماد ي : ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٣٠- تفسير الشعراوي خواطر الشيخ محمد متولي الشعراوي مسجلة وقد فُرِّغت في حياته وأقرها: وعني بطبعها: مطابع أخبار اليوم ١٩٩٧م
٣١- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) – محمد رشيد رضا – الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – سنة النشر: ١٩٩٠ م.

٣٢- تفسير القرآن الكريم: ابن قيم الجوزية : مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية، ط: دار الهلال بيروت- الأولى: ١٤١٠ هـ
٣٣- التفسير الوسيط للقرآن الكريم د: محمد سيد طنطاوي -: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة الأولى: ١٩٩٧ م.
٣٤- جواهر الأفكار ومعادن الأسرار المستخرجة من كلام العزيز الجبار- عبد القادر بن أحمد بدران،المحقق: زهير الشاويش ط: المكتب الإسلامي، بيروت – لبنان -: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩١ م
٣٥- حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي- شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي – ط: دار صادر- بيروت.
٣٦- حاشية الشيخ محمد الإنبابى على رسالة االشيخ محمد االصبان في علم البيان – المطبعة الأميرية ببولاق – الطبعة الأولى ١٣١٥هـ،
٣٧- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د :عبد العظيم إبراهيم المطعني:- مكتبة: وهبة- الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.
٣٨- دراسة في البلاغة والشعر- دكتور: محمد محمد أبو موسى- مكتبة وهبة – الطبعة الثانية – ١٤٣٨هـ ٢٠١٧م .
٣٩- دلائل الإعجاز : أبو بكر عبد القاهر الجرجاني - تحقيق: محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة ، الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
٤٠- ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان: ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرون ط: دار المعرفة – بيروت لبنان .
٤١- ديوان حافظ إبراهيم : طبعة : دار الكتب المصرية، ١٩٧٣ م.
٤٢- ديوان زهير بن أبي سلمى : طبعة: دار صادر بيروت .
٤٣- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني- شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي – المحقق: علي عبد الباري عطية- الناشر:دار الكتب العلمية بيروت- الأولى، ١٤١٥هـ

٤٤- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي- مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة ١٢٨٥ هـ.
٤٥- شرح القصائد العشر يحيى بن علي للتبريزي :إدارة الطباعة المنيرية الثانية :١٣٥٢ هـ]
٤٦- علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم دراسة بلاغية – نظرية – تطبيقية أ.د/ إبراهيم صلاح الهدهد – مكتبة الإيمان الأولى ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م .
٤٧- غرائب القرآن ورغائب الفرقان نظام الدين النيسابوري: تح: الشيخ زكريا عميرات- ط: دار الكتب العلميه – بيروت-الأولى – ١٤١٦ هـ.
٤٨- فتح القدير- محمد بن علي الشوكاني اليمني- الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب- دمشق، بيروت- الأولى: ١٤١٤ هـ
٤٩- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية للشيخ سليمان بن عمر العجلي الشافعي-ط:عيسى الحلبي- بمصر
٥٠- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)- شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي : – ت: إياد محمد الغوج- د. جميل بني عطا- الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم.
٥١- فن التشبيه – على الجندي : – مكتبة الأنجلو – ١٩٢٧ .
٥٢- القاموس المحيط : محمد بن يعقوب الفيروزآبادى طبعة: مؤسسة الرسالة بيروت لبنان- الثامنة، ١٤٢٦هـ،٢٠٠٥ م.
٥٣- كتاب السبعة في القراءات – أبو بكر بن مجاهد البغدادي- المحقق: شوقي ضيف- ط: دار المعارف – مصر-: الثانية، ١٤٠٠هـ.
٥٤- الكتاب – عمرو بن عثمان بن قنبر (سيبويه): – المحقق: عبد السلام محمد هارون- الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة- الثالثة، ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٨ م.

٥٥- كتاب العين – أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي ، المحقق:د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي- ط: دار الهلال
٥٦- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل – أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري جار الله طبعة : دار الكتاب العربي – بيروت – الثالثة – ١٤٠٧هـ.
٥٧- لسان العرب – محمد بن مكرم، جمال الدين ابن منظور الإفريقي،- طبعة : دار صادر – بيروت – الثالثة – ١٤١٤ هـ-
٥٨- لسانيات النص نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري – أحمد مداس – طبعة: عالم الكتاب الحديث للنشر – اربد – الأردن – الأولى – ٢٠٠٧م
٥٩- مجمع الأمثال للميداني تحقق محمد محي الدين عبد الحميد ط : مصطفى البابي الحلبي ، مصر} .
٦٠- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – ابن عطية الأندلسي:- تح: عبد السلام عبد الشافي محمد- ط: دار الكتب العلمية – بيروت الأولى ١٤٢٢هـ
٦١- المخصص: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي ٤- تحقيق: خليل إبراهم جفال – دار إحياء التراث العربي بيروت الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.
٦٢- مسند الحميدي- أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي المكي : – تحقيق: حسن سليم أسد الدَّارَانيّ- ط: دار السقا، دمشق سوريا:الأولى، ١٩٩٦ م
٦٣- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله – ﷺ – بصحيح مسلم – مسلم بن الحجاج النيسابوري تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي- ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت].
٦٤- مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السُّوَرِ- ابن أبي بكر البقاعي، طبعة : مكتبة المعارف الرياض الأولى ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧ م.

٦٥- معاني القرآن – أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء: – حققه: أحمد يوسف النجاتي، وآخرون ط: دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر–:الأولى.
٦٦- معجم متن اللغة – (موسوعة لغوية حديثة) – أحمد رضا –– الناشر: دار مكتبة الحياة – بيروت – ١٣٧٩ هـ – ١٩٦٠ م
٦٧- المعنى الأم وأثره في تذوق النص – د/ حسين إبراهيم حسين إمام – ضمن كتاب شيخ البلاغيين محمد أبو موسى – بحوث مهداة لفضيلته بمناسبة تجاوزه الثمانين : طبعة : مكتبة وهبة – الأولى ١٤٤١هـ، ٢٠٢٠م .
٦٨- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير أبو عبد الله محمد بن عمر الملقب بفخر الدين الرازي: طب:دار إحياء التراث العربي بيروت الثالثة ١٤٢٠ هـ.
٦٩- من أسرار اسم التفضيل في الذكر الحكيم – د/ أحمد السيد طلحة داود ، ط : دار الغدير للطباعة والنشر بدون ت ، بدون ط.
٧٠- من أسرار التعبير القرآني – دراسة تحليلية لسورة الأحزاب – د/ محمد محمد أبو موسى : مكتبة وهبة – الثالثة ١٤٣٢هـ ٢٠١٢م
٧١- من بلاغة التشبيه الساخر في القرآن الكريم دراسة تنظيرية تطبيقية د/ مدحت حسيني ليمونة – بحث منشور في مجلة كلية التربية جامعة كفر الشيخ: – العدد الرابع ٢٠١٤م
٧٢- من بلاغة الفرائد الفذة في القرآن الكريم (المضارع نموذجا) د/ كمال عبد العزيز إبراهيم،طبعة:الدار الثقافية للنشر، الأولى :١٤٣١ هـ ، ٢٠١٠م.
٧٣- من بلاغة القرآن د / أحمد أحمد بدوي – .طبعة : دار نهضة مصر للطباعة– القاهرة : ٢٠٠٥ م.
٧٤- من الحصاد القديم – دكتور/ محمد محمد أبو موسى . طبعة: مكتبة وهبة – الأولى – ١٤٣٩هـ ،٢٠١٨ م .

٧٥- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم: محمد بن عبد الله دراز – اعتنى به : أحمد مصطفى فضلية- قدم له : أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني- ط: دار القلم للنشر والتوزيع – ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.
٧٦- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور – إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي: – الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
٧٧- النكت في القرآن الكريم (في معاني القرآن الكريم وإعرابه)- علي بن فَضَّال المُجَاشِعِي القيرواني: دراسة وتحقيق: د. عبد الله عبد القادر الطويل-طبعة:دار الكتب العلمية بيروت:الأولى، ١٤٢٨هـ،٢٠٠٧ م.
٧٨- نقد الشعر – قدامة بن جعفر –، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي – طبعة دار صادر بيروت .
٧٩- النهاية في غريب الحديث والأثر- مجد الدين الجزري ابن الأثير تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي – المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
٨٠- وظيفة الصورة الفنية في القرآن:عبد السلام أحمد الراغب:ط : فصلت للدراسات والترجمة والنشر حلب-الأولى، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١ م.